

DRENCHED BOOK

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190113

UNIVERSAL
LIBRARY

مجاهل افريقية

تعريب المعلم شاكر شقير

اللبناني

عضو عامل في المجمع العلمي الشرقي

فضل السياحة لذة وفكاهة وابن تاجر في العلوم فوائد
فكأنها المرأة فيها تنصر الدنيا وانت على بساطك قاعد

طبع في بيروت بمطبعة القديس جاورجيوس سنة ١٨٨٥

القسم الاول

مقدمات اجمالية

الفصل الاول

في حالة افريقية قبل ليفنستون

كانت لفظة افريقية في الرمان الاول تطلق على قسم شمالي من القارة الحالية . وبعد اكتشافات السياح وطوائفهم حول هذا البر اتسع صارت تحسب قارة عظيمة من قارات الكرة الارضية وهي احدى الثلاث الشاغلة الوجه الشرقي منها . مساحتها نحو ٢٥ مليون كيلومتر مربع . وكانت سابقاً متصلة باسيا بقطعة من الرمل فاصلة بين البحر المتوسط والبحر الاحمر يقال لها برزخ السويس والآن قد صار هذا البرزخ ترعة فصارت افريقية جزيرة كبيرة يحدها البحر المتوسط والبحر الاحمر من الشمال والغربي والاقيانوس المحيط من الشمال الشرقي والشرق وبحر الهند من الغرب والاقيانوس الكبير من الجنوب وطرفها الجنوبي هو المعروف براس الرجاء الصالح

وعرفت سواحل افريقية في ازمان متباعدة واما داخلتها فبقيت قروناً عديدة مجهولة لشدة حرارتها وكثرة مخاوفها والاضطراب والمشتات المعترضة

دون من يتوغل فيها ومع ان اليونان والرومان كانوا يدخلون افريقية ويواصلون سواحلها وبعض قبائلها الداخلية مدة طويلة من الدهر لم يخطر ببالهم ما في داخلتها من المناوز والصحاري الرملية والوعور والجبال والانهار ونحو ذلك مما عرفه المتأخرون

فابعد رحلة عرفت من الآثار القديمة رحلة امير بحر قرطاجني تقدم على سواحل ليبيا الى ان بلغ النقطة التي زعموا انها خط السرطان . وذكر هيرودوتس رحلة فينيقية كانت تحت حماية نخو ملك مصر وان الجماعة دخلوا البحر الاحمر نرعة حنرت حديثاً وبعد ثلاث سنين من مسيرهم في البحر رجعوا الى المكان الذي رحلوا منه وقد مروا باعمدة هرقليس . وتعجب هيرودوتس من امر حدث لم وهو ان الشمس كانت اولاً تطلع عن يسارهم ثم راوها في رجوعهم تطلع عن يمينهم . وهذا يدل على ان هؤلاء الفينيقيين قطعوا خط الاستواء مرتين . وسنة ١٨٢٠ اكتشف السباح قرب راس الرجاء هيكل سفينة من خشب الارز مدفونة منذ قرون عديدة وزعموا انها سفينة فينيقية

ولا يتعجب الفارسي من ذكر هيرودوتس دخولهم البحر الاحمر بنرعة حديثة الحفر لان عمالية دولسيس لم تكن الوحيدة في برزخ السويس فالاقدمون كثيراً ما اجالوا افكارهم في فتح نرعة تصل بين البحر المتوسط والبحر الاحمر فعلى ما يظهر من كلام هذا المؤرخ ان نخو ملك مصر فتح تلك النرعة . وعلى راي ديودورس الصقلي ان دارا الاكبر شرع بهذا العمل سنة ٤٩٠ ق م واكملة بطليموس سنة ٢٧٧ للميلاد . وذكر بلينيوس ان النرعة كانت تصل الى البحيرات المرة والدلائل كثيرة على القول بانها كانت تتصل ايضاً بالبحر الاحمر . ولما حنرت مؤخراً في عهدنا هذا وجدت آثار كثيرة تدل على انها من عهد بطليموس او كليوباترة . ودخلتها السفن قديماً الى القرن السادس للمسيح بعناية الامبراطور طرابانوس والامبراطور اورليانوس الرومانيين . ثم طمرت مدة طويلة الى زمن الفتوح الاسلامية ففتحها عمرو بن العاص وبقيت مفتوحة الى

زمن المنصور فطرت اسد طريق العصاة المصريين ولم تنزل مطبوعة الى هذا الزمان ففتحها المهندس دولسيس المشهور

وكان القدماء كما قلنا لا يعرفون من افريقية الا القسم الشمالي وسائر اقسامها بقيت غامضة حتى على المتأخرين . ومنذ القرن الخامس عشر اخذ المسياح في التقدم على سواحلها مخاطرين بانفسهم واول من فعل ذلك البرتوغاليون فتعرفوا السواحل وواصلوا القبائل الداخلية . وكل ما عرف في ذلك الزمان من احوال افريقية بقي على ما هو الى اوائل القرن التاسع عشر الذي نحن فيه وزد على ما تقدم ان الاولين كانوا يعرفون احوال مياها الداخلية اكثر من المتأخرين الى سنة ١٨٤٠ فقد صنع البرتوغاليون كرات في القرن السادس عشر ومركانور خارطات سنة ١٥٤١ وكذلك كورونلي سنة ١٦٨٨ وعلى جميعها رسوم بحيرات في افريقية يتغير منها النيل . وفي البندقية نشرت عدة خارطات منها باسم مارين سانودو سنة ١٢٢١ وباسم فراموروس سنة ١٤٥٧ ومرتين بينهم سنة ١٤٩٢ ودياغور بيريرا الاشبيلي سنة ١٥٢٩ ودابر الامستردامي سنة ١٦٧٦ واتمبل سنة ١٧٤٩ يظهر منها انه منذ عهد قديم قريب من اسفار البرتوغاليين كانوا يعرفون بعض امور مقررة عن بحيرات كبيرة في واسط افريقية دعت العلماء المتأخرين من ابناء هذا العصر الى الاستقراءات العظيمة . وقد ذكر بطليموس ان القطر الذي فيه ينابيع النيل يقال له بلاد القمر وهو اسم الى اليوم وذكر ايضا ان البحيرات التي يخرج منها النيل كثيرة المستنقعات ومع ذلك كان يجهل مواقع هذه البحيرات وعددها

والرحلات التي قام بها الناس الى تلك الاقطار كثيرة منها للعرب ومنها للبرتوغاليين واول رحلة مهمة تذكر رحلة لاون الافريقي ومنها بعد ذلك رحلات كافانسي وبونسيت وبروي وكولسي وذلك في القرن السابع عشر ثم رحلات كيبانيون وسنبورت وسكاو ودي مرشي وبوكوك وبرون وايزر ونوريس وبورثان وبارو ومندوزو لاسردا وذلك في القرن الثامن عشر .

وليس في رحلاتهم نفاذ يركن اليها . ثم كانت رحلة ادمس وصل بها الى تمبكتو سنة ١٨١٠ ورحلة مغورك مات بها قتيلاً وهي اول رحلة نفاذ بها صحبة عما يتعلق بنهر نيجر ثم رحلات كلايتون ولاي ورتشرد لندر وكالبي ثم رحلة برث الشهير ورفيقه فوجل وهما اللذان دخلا الاقطار السودانية التي يشتهر النهر المذكور

واما في ساحل افريقية الشرقية فلا يعرف الا رحلة برتوغالية من سنة ١٨٠٦ الى ١٨١٠ وصلوا بها الى مصبات زمبيز ولم تات رحلاتهم بطائل . ثم كانت رحلة المرسل الانكليزي كريف ورفيقه ارهت وربان فاكتشفوا اشياء مهمة في جبال قنية قبيلة نيجارو وحصلوا من تجار العرب في تلك الاقطار افادات تتعلق بالجبرات الكبرى ادت السياح الى قصدها . فسنة ١٨٤٥ رحل شاب فرنسوي اسمه ميزان وبنها هو خارج من نغامويو تجاه زنجبار قاصداً قرية جل المهرة التي تبعد عن الساحل نحو ٢٠٠ كيلومتر دهم البرابرة وعذبوه اشد العذاب وقتلوه وقد كان آملاً ان يبلغ بحيرة تشاد . وسنة ١٨٥٩ مضى رذشر الهبرغي مع قافلة من العرب وقارب بحيرة نياصا فقتل وهو نائم

فهذا يجعل ما عرف من الرحلات الاوروبية الى الاقطار الافريقية الى الوقت الذي قام به العلامة ليفنستون باكتشافاته الجارية بعد ان اقام في افريقية مدة طويلة فنهض وشرع باول رحلاته سنة ١٨٤٠ . ومضى سنة ١٨٥٢ الى غرب افريقية الشمالية ووصل الى ساحل كونغو ورجع الى كيليماني على ساحل افريقية الشرقية ماراً بوادي زمبيز فاكتشف شلالات هذا النهر وهكذا اجتاز بر افريقية من ساحل الى ساحل . امر لم يسبقه اليه احد من الاوروبيين . فلما رأى ان مساعيه نجحت عزم على الاستغناءات الكثيرة في الاقطار الفسيحة فكان ينح بواسطه سمو عقله ومعارفه الطبية . فشرع برحلته الثامنة الكبرى سنة ١٨٥٨ فاستقرى بها نهر شيري الذي يلتقي بزمبيز واكتشف بحيرة نياصا التي يخرج منها شيري وعرف معرفة تامة القسم الاسفل من زمبيز . وسنة ١٨٦٥

عزم على دخول النظر المجهول الواقع بين تنغانينا ونياسا لكي يتم استقراء
الاولى من هاتين البحيرتين ويتعرف احوال الاقطار التي الى غربيها وشمالها
صاعداً وراء خط الاستواء الى صقع كبير لم تكن احواله معروفة ولذلك قضى
السنين الاخيرة من حياته في انعام مشروعه المذكور فمن شهر اذار سنة ١٨٦٦
الى شهر ايار سنة ١٨٦٣ لم يكل ولا قعد ساعة عن تنع مساعيه فعملوا هته
واجتهاده العظيم اكتشف اكتشافات جغرافية ذات اهمية عظيمة ومهد للسياح
سبلاً عديدة وهو الذي حرك روح النغاب في السياح بواسطة تجارة العبيد فكانت
سبباً لتقدم العالم في عشرين سنة اكثر مما تقدم في ٢٠ قرناً قبله . وبسببه ايضاً
بالغ السياح في استقصاء بنايع النيل في جهات مختلفة حتى عرفت معرفة تامة

الفصل الثاني

في مجمل الرحلات الاخيرة

منها رحلة سيلك وبرتون قطعاً من الاوقيانوس الهندي الى بحيرة تنغانينا
فرض برتون وبقي في قازة قضى سيلك سبلاً بحسب تعريفات تجار العبيد المهمة
فوصل الى بحيرة اوكيربوي فما قدر ان يستقر بها ومضى عازماً ان يعود اليها ثم
رجع لاحقاً بالتيطان غرنت سنة ١٨١١ لتصد البحيرة العظيمة التي يصدر منها
النيل فوصل الى اوغندا فاحسن الامبراطور متيسا التفاته اليها فاجتازا ارضه
وركبا النيل الى غندوقورو . وسنة ١٨٦٣ لقيهما السائح صموئيل باكر فافنخر

الانكليز بسبك قائلين انه كشف ينابيع النيل
واقام باكر بعد ذلك يستفري ضفاف النيل الازرق وهو يطارد الصيد
على تلك الجهات ويبيد تفاصيل جليلة عن تلك الاقطار المتسعة التي بين ارض
الحبشة والنهر الابيض ومضى ايضاً جول جبرار الفرنسي المشهور بقائل
الاسود وبينما هو سائر في طريق نجير مرض ومات

وسنة ١٨٦٥ كانت رحلة ليفنستون لاستقراء شيري وجنوبي نياصا وكان
الزئولع (الزولوس) قبل ذلك قد منعه بتعدياتهم عن هذا الاستقراء
ثم رحل دوشاليو واستفري اقطار كونغو الواسعة واراد ان يصل الى
تغانيقا من شاطئها الغربي آتياً من خليج غينيا فلم يتوفق الى التوغل
ومضى اوسان الفرنسي جاعلاً نقطة ترحاله في خرطوم قاصداً بلوغ
غابون حيث خرج دوشاليو

ونقدم ايضاً في تلك الاقطار الكثيرة الاخطار جيررد رولف الالماني
قاصداً تجديد مساعي برث الناجحة واختراق البلاد الى تمبكتو في خلال الصحراء
مارةً ببعية تشاد وارض بورنو

وكان الخبر قد شاع في ذلك الزمان ان ليفنستون مات في اثناء تجواله
فعزمت انكليترا على ارسال جماعة للفتيش عليه فوردت اخباره انه ساع بجناح
واجتهاد ثم انقطع خبره مدة اربع سنوات فنهضت الجمعية والهمة بالشجاع العالم
ستالي ومضى للكشف عن احوال ليفنستون فلما وصل الى زنزيبار جمع قافلة
ونقدم في طريقه في شهر نيسان سنة ١٨٧١ واخبره طويلاً لامل لها هنا الآن.
وفي تلك الاثناء الى سنة ١٨٨٠ رحل جماعة اخرون مثل شوينفرت وصوئيل
باكر وكامرون ومخنيغال وبرانسا وبلتون ودييز وفلانر وماتشي ومساري
وسر بابتو وغيرهم

الفصل الثالث

في انهار افريقية الكبرى

اولاً النيل

منذ اقدم الازمنة كانت مسألة فيضان النيل تهم جميع من قطنوا على ضفتيه ليعرفوا سببها وعرف ان اقدم المصريين كانوا يحاولون معرفة منبع هذا النهر الغريب فنيل ان جماعة منهم مشيت في الارض نحو شهرين الى ما فوق اليفغانية واقامت هناك . وذكر سينكا ان الامبراطور نيرون ارسل من قبله وقد استفروا تلك الاقطار فصعدوا النهر الى ان بلغوا غديرًا عظيمًا مستنقعًا لم يتيسر لهم سلوكه ولعله بحيرة النوء وعلى راي المتأخرين بلغوا بلاد نيام نيام التي يرونها ببحر الغزال مع ان السياح المتأخرين منذ اكثر من عشر سنوات لم يكادوا يبلغونها

ولم تقدم الى هناك رحلة مهمة قبل اللجنة التي ارسلها محمد علي باشا سنة ١٨٣٩ بالحاج قنصل فرنسا فلم يصادفوا نجاحًا . ثم ارسلت لجنة اخرى تحت قيادة ارنود وساباتني الفرنسيين فبلغوا من العرض الى ٢٢ ٢٣ ٢٤ ومن ثم طرقت الطريق التي فحوا لكن لم يتجاوزها احد لما منع لان استطاع ازالته الى ان كانت سنة ١٨٤٩ فطلبت الامبراطورة صوفيا النمساوية الى البابا بيوس التاسع ارسال

لجنة مبشرين فبلغوا المكان الذي قامت فيه من ثم محلة غندوقورو
ثم سافر فودي وبعده برون رولي كل منها بصفة قنصل سردانيا فصعدا
النيل واعتبرا المشقة قبل ان تجاوزا الدرجة الرابعة وكذلك حصل لاثنتين بعدها
غير ان اندريا دبونو التاجر المالطي تقدم اكثر من الجميع حتى بلغ الدرجة
الثانية فوق خط الاستواء . ومع كل ذلك لم يكن التجاج على تقدم الى ان قام
سيبك وبرتون وقصدا الوصول الى الجبرات الكبرى التي يشق منها النيل
أخذين من جهة اخرى فضا في الطريق التي يمضي بها تجار العرب من زنزيار
فبلغا بحيرة تنغانيقا وكان قد اخبر بوجودها المرسل السوي البرتوغالي لويس
ماريانا في القرن السابع عشر

وسبع سيبك وبرتون من تمار العرب بوجود مجموع مياه فسيح لم يكن
بحراً واقع في الجهة الشمالية ولا تعرف حدوده وكان برتون قد مرض فتركه
سيبك في قازة وتوجه نحو المكان المذكور وبعد مسيره ٢٥ يوماً رأى من راس
هضبة مجموع ماء ينحى الى الشمال وكان متسعاً جداً فلم يستطع دخول هذا
البحر والظروف فيه لسوء اخلاق الاهالي فعدل عن عزمه اذ ذاك وفكره ان
يعود ثانية وقد عرف انهم يسون ذلك البحر نيازاً أو قيربوي

فهذا الاكتشاف المهم حرك جمعية الجغرافية في لندن وعزمت على ارجاع
سيبك للوقوف على هذه البحيرة العظيمة وارسلت معه القبطان غرنت وامدتهما
بمال كثير . وارسلت الحكومة امراً الى قنصل خرطوم ان يتقدم في النيل الى
غندوقورو ويلقى السائحين بزاز وافر وكان المسموع ان نهراً عظيماً يخرج من
تلك البحيرة نحو الشمال ولا يكون هذا المهر الا نفس النيل فاشتهر اسم السائحين
المذكورين وافتخر الانكليز باكتشاف ينبوع النيل على يدها . غير ان هذه
المسألة التي شغلت الناس منذ ٢٥٠ سنة لم تحل حلاً كافياً لان الذي
عرف مؤخراً ان النيل اصولاً كثيرة تأتي من الجنوب والشرق والجنوب
الغربي وتجميع كلها لتألف مجرى النيل وكانوا كلما عرفوا واحداً من هذه الاصول

يقولون انه سبع اليل والراي العام كان ان ما يسي هناك بالبحر الايض هو
الاصل الحقيقي وثبت ذلك برحلة سيبك الثانية . وكان ينال ايضاً ان ما يسي
بالبحر الازرق هو مصدر اليل تم تحقوا ان هذين النهرين المسميين بالبحر
الايض والبحر الازرق يجتمعان تحت الخرطوم عند الدرجة الخامسة عشرة من
العرض الشمالي وقبل ان يجتازا بلاد سنار في مجريين كثيرين الصخور يرويان
اكبر قسم من بلاد الحشيشة وهناك ينضم اليها انهر اخرى آتية من مملكة خول
وبلا دجمة . وذكر بعض السياح ان ذلك النهر العظيم يخرج من بحيرة
بنال لها بحيرة الروع محيطها مسير عدة ايام وموقعها الى جنوبي جبال قفّة

وبعد الرحلتين التي امر بها محمد علي سنة ١٨٢٩ و ١٨٤٠ توجهت
الافكار الى النهر العظيم الذي يشق بحيرة النوء المسماة عند العرب ببحر الغزال
وبعد ان فتحت الطرق في تلك الاقطار لدخول تجار الامم راي الاهالي
انفسهم انهم آله للخدمة وغرضاً للشفاء والحسنان فقلت ثقتهم بالاجاب وصار
يصعب جداً تخطل اراضيهم لمعرفة اصل النيل الغربي لكن سنة ١٨٥٦ دخل
تاجر ايطالي في حدود نيام نيام واطهر بعض تفاصيل عن احوال تلك القبائل
ثم مضى شوبنرت واقام ثلث سنين بفحص اقطار باغسة الجبلية التي يخرج منها
عدة جداول يصب منها في اليل ما هو الى جهة الشمال وفي بحيرة تشاد او
نهر كونغو ما هو الى جهة الجنوب . وبواسطته عرف كل التلاع الجنوبي لبحر
الغزال

وبعد ان فحص ليفنستون اقطار بحيرة تنغانيقا والبحيرات الجنوبية حسب
انه قد عرف بتابع النيل الحقيقية وكان قد سمع من تجار العرب ان بين تنغانيقا
والبحيرات الاخرى اتصالية وبعد ذلك اكتشف سيبك وغرنت وباكر
واخيراً ستالي ان النيل يخرج من بحيرات عظيمة تجتمع اليها مياه الامطار الغربية
ومياه انهار اخرى صغيرة آتية من الجبال الجنوبية والشمالية
فمن تلك البحيرات فكتوريا نيانزا شواطئها محفوفة بالعوسج والعابق تمتدّ

وراءها غابات كثيفة من القصب ياوي اليها فرس الماء بكثرة والبعوض يكثر هناك حتى يكون كالسحاب والنباتات المجاورة لها خشنة الطبايع جداً سيئة الجوار وارتفاع موقعها عن سطح البحر ١٠٩٧ متراً ومساحتها نحو ٢٤ الف كيلومتر مربع وفي ايام الحرّ نقل مياهها بالتبخر فتتفص نحو ٢٥ مليار متر مكعب وفيها قطع كثيرة من الارض على هيئة جزر وتشد بها الانواء بسبب المد والجزر ولها مجرى متصل به بحيرة اخرى كبيرة اسمها موتانسج وهي في حضيض جبل اسمه جيجارا علوه ٤٠٠٠ متر واهله بيض اغنياء وينصب الى فكتوريا نهر عنيف الجري يسمى الكسندرا عرضه ١٥٠ متراً وعمقه ٤٠ وهو يجتمع من ١٧ بحيرة صغيرة وهذه البحيرات يشقها كلها نهر يخرج من بحيرة اسمها الكسندرا نياترا ويصب في بحيرة وندر مير

ومن البحيرات الكبرى ايضاً بحيرة كويا تنصب مياهها الى بحيرة اخرى كبيرة اسمها ألبر نياترا. حولها جبال عالية تمتد من شاطئها الجنوبي غابات طويلة عريضة من البردي

ثانياً نيجر

كان القدماء لا يعرفون حقيقة هذا النهر وخطوا كثيراً في الكلام عليه حتى اوضح منغوبرك ولينغ وكالي معرفة مجاريه العليا والاخوة لندرابانوا تفاصيل كافية عن مصه سنة ١٨٣٠ وقد هلك بسبب هذا النهر كثير من السباح لصعوبة المسلك في افطاره. منهم سوني وبريسون وادم وريلي وكوريلي ومنغوبرك واندرسون وسكوت ولينغ وكالي هولاء ماتوا بشدة المشقات. وكلارتون ورتشرود وجون لندرو وغيرهم قتلوا قتلاً وسنة ١٨٥٢ قطع برث الصحراء وبلاد السودان ووصل الى النيجر ومن هناك اخترق البلاد وبلغ تمبكتو. ونحنا

نحوه سياح اخرون فلم يجاوزوا سيفو لان ملكها منع توغل الاجانب في اكتشاف البلاد خوفاً من نفوذهم التجاري

ويجتمع النيجر بنهرى تالميس وفليئة ومن ثم يسي ذبولي با فيصير مهاباً بالنسبة الى البلاد التي يشنها ولاسيا في تجارة فرنسا لانه بناوح نهر سنغال الذي تجري فيه السفن مسافة الف كيلومتر ويجازي مجراه مجرى النيجر الاعلى على مسافة ٤٠٠ كيلومتر وتجري السفن في النيجر مسافة ٢٠٠ كيلومتر وبهذا تسهل الاتصال بين سنغال والسودان والصعراء . والافطار التي يشنها النيجر خصبة متنوعة المحاصيل . وعرضه في قسمه الاعلى نحو ٦٠٠ متر وسيره غير عنيف في الصيف وعلى ضفتيه مفاوز رملية ويمكن سير السفن التجارية فيه هناك . وبعد ان يجتاز بلاد سيفو يشق سنسنديع ثم يدخل مسينا وتتل تعرجاته ويجري في ارض مستسيلة ثم ينعطف الى الشمال الشرقي ماراً بحدود الصعراء وينتهي الى الجنوب الشرقي قبل ان يبلغ جاجو نقابل . وجاجو قصبة قديمة للمملكة سرحاي وبعد ذلك يجري في بلاد خصبة كثيرة القبائل وبعد مسافة بعيدة يصل الى قبا فينصب اليه نهر رما ويكون واسطة الاتصال بينه وبين بحيرة تشاد بواسطة مدينة قانو . وبعد ذلك يصعب ركوبه لعنف مجراه واسبب تلايلات بوضه . ومن هناك تنصب اليه عدة جداول . وبعد ان يجتاز بين جبال تونو ووليم ينصب اليه نهر بنوي . وبعد ذلك يمر بمضائق اغبيغي وينعطف قليلاً نحو الجنوب الغربي ويصب في الانلتيك بمصبات عديدة ثالف منها ارض كذلنا النيل . وطول مجراه عموماً ٢٥٠٠ كيلومتر

ثالثاً كونغو

ويسمى زيري ايضاً وهو نهر عظيم اول من قصد استقراء البرتوغاليون بعد ان استولوا على المكان الذي ينصب منه الى البحر غير ان عنف جريه منعهم عن التقدم فيه . ثم تقدم بعض السياح الى وسطه وكشف بعضهم بحيرة تمده في الداخلية . ثم دخل الايطاليون في الاقطار الداخلية التي يجري فيها وعرفوا انه يخرج من بحيرة اسمها زيري وهي بحيرة موبرو التي اكتشفها ليفنستون في رحلته الثانية . ومن هناك ينشعب منه فرع الى الجنوب ويدخل في تلالع زمبيز ثم استقراء ستانلي استقراء حسناً وعرف اقطاره

وهو نهر كبير فسبح عميق يسميه الاهالي باسماء تدل على شدة هوله عندهم كالميلع والمغرق ونحو ذلك ويتدفق منه في الانلتيك كل ثانية ٥٦ الف متر مكعب . وتنصب اليه عدة انهر

رابعاً زمبيز

هذا النهر يصب في ترعة موزمبيق بين ماد كسكر والبر الافريقي ومياهه عند المصب عميقة وتكثر المستنقعات على ضفتيه فتولد حميات وحشرات مهلكة وكان معروفاً منه القسم الذي بين شاطئ البحر وقرية تيتي وهذا القسم كان يركبه تجار العبيد واما القسم الباقي فاكتشفه ليفنستون وعرف به شلالات فكتوريا العظيمة وتنصب اليه عدة انهر صغيرة وينفيض مرتين في السنة ويجري قسم منه في سهل طوله اكثر من ٢٠٠ فرسخ وقسم في ارض مستوعرة يصعب سلوكة فيها

وعرضه في بقعة منه قبل الشلالات ألف متر ثم يهوي في هوة عميقة فيرى بها ضباب كثيف ويتصاعد من هناك خمسة أعمدة من البخار صاعدة في السماء وتنزل على الأرض كالمطر وهو منظر غريب وبعد ذلك يجري في أرض خصبة لا يقدّر. وطول مجراه ٤٤٩ كيلومتر وكل ذلك القطر كثير الحيوانات والنبات والادغال فهناك الفيل والحماموس والكركدن والغزلان بكثرة والابنوس المثلث ونحوه وفحم الحجر في طبقة فسيحة من الأرض ونسبته في الفائدة إلى أواسط أفريقية كنسبة الطوة إلى أوروبا والامازون إلى أميركا الجنوبية

الفصل الرابع

— — — — —

بوادي أفريقية

منها البادية الرملية العظيمة المعروفة بالصحراء ممتدة من الساحل الغربي من أفريقية إلى الساحل الشرقي من آسيا أي من الأتليتيك إلى بحر اليابان وتليها في خطها بادية ليبيا وبادية العرب وبوادي فارس وبلوخستان وبخارى ثم بادية قوبي الكبرى. وصحراء أفريقية طولها ٤٨٠٠ كيلومتر وعرضها ٢٤٠٠ ومساحتها سطحها قريب من مساحة سطح أوروبا كلها. ويقال إنها كانت في الزمان القديم بحراً فارتفع قعره باندفاعات طبيعية وعلا أو سطت إلى ارتفاع نحو ٤٠٠ متر فوق افطار جبال الأطلس وينخفض بالتدريج. وتكثر فيها كثبان كثيرة من كل وجه وفيها أيضاً جبال مستورة وصخور عظيمة وقد ثرت فيها مع ذلك بقع قليلة متفرقة يسمونها الواحات فيها شيء من الماء والخضرة. ويسير

الانسان في رمالها الكثيفة وصخورها الصلبة اياماً طويلة لا يرى حيواناً ولا نباتاً ولا طائراً واشعة الشمس تفيض عليها كهب الاناتين فان ثلثة ارباع سطحها في المنطقة الحارة وتبلغ درجة الحرارة في رمالها الى الدرجة ٧٠ من الميزان المعروف بالسنتيكراد. وتهب فيها الرياح المعروفة بالسوم فتتسبب رمالها وتقلها كالمضاب من مكان الى اخر وهي توج وتدور كتيارات البحار وعند اقتراب العاصف من الغافلة تنام الابل على الارض لتلا تحملها الريح والانسان يغطي وجهه وينام في ظل بعيره او يهرب الى جب مخفور هناك اذا اتفق له لكن النجاة نادرة جداً وقد هلكت قوافل عديدة من حرارة الرياح وتراكم الرمال عليها واحياناً تكشف عنهم الرمال بريح اخرى فتظهر بقاياهم الدالة على نكبتهم. وكثيراً ما يحرق الغبار الخيشيم والرتة فيوقف عليها والريح الحارة تحمل دقائق كبريتية تفسد البنية ولشدة حرارة هذه الريح وجفافها تنقص ماء النبات الذي تصادفه وتجنف الآبار التي فيها شيء من الماء والقرب المملوء ماء المعلقة في الرحال فيتلف بها الحيوان وبذبل النبات وقد ناتي الاعصار بالرمال كاساطين ضخمة قائمة في الهواء تدور على قواعدها فلو صادفت عسكراً التفت عليه كالحمية واهلكته عن اخره. فالصحراء بالحقبة اوقيانوس من الرمال متموج وذو اواء شديدة هائلة طالما قاست مصر اخطارها الشديدة وليس لها حاجر يمنع تقدم الرمل في اقطارها الا النيل

وقد توجد في الصحراء ابار قليلة متفرقة ما دام الماء فيها ترى منازل الفاطنين محدقة بها وطريق الغافلة عليها فاذا نصب الماء انتقل الاهالي الى مكان آخر وغيرت القوافل طريقها لتلا تهلك عطشاً. ومع ذلك تسقط الامطار في ايام معلومة فتحي نباتات الواحات وتحيا بها الماشية. والامطار تسقط كالانهار وقد تستمر شهراً كسيول متدفقة. وكثيراً ما تهلك الناس والبهائم بسيل الجبال. فاذا طلعت الشمس تكون الرمال قد امتصت اكثر المياه والشمس تبخر الباقي وتكون المياه الممتصة بالرمال في جوف الارض على اعماق مختلفة

كجيرات متسعة

ومن بوادي افريقية ايضاً صحراء ليبيا تمتد من خلف جبال طو الى وادي النيل وقد ابتلعت رمالها ابنية كثيرة قديمة في الواحات التي على جانبها . وقد حاول السياح اجتياز هذه الصحراء منذ خمسين سنة فلم يقدروا حتى اقدم عليها جبررد رولف فخرج من اسبوط سنة ١٨٧٤ بامدادات من خديوي مصر وقاسى اشد المشقات حتي وصل الى واحة يقال لها الداخلة فاراد ان يتقدم منها الى الواحة الفقرة فلم يقدر ان يتغلب على قوى الطبيعة فشى ستة ايام في رمال متوجة متخللة وقابل كتباً اارتفاعها ٤٠٠ قدم فتوقف . وسنة ١٨٧٩ ركب طريقاً آخر فخرج من واحة جالو الى الجنوب الشرقي من ولاية طرابلس وبعد تسعة ايام بلغ الواحة الفقرة المذكورة

ثم وصل غيره الى واحة سيوا فلم يقدر ان يجاوزها فالواحات التي بلغ اليها السياح هي الخارجة والداخلة وفرافرة وسيوا وعجزوا عما وراءها وقد ظن الجغرافيون انه يمكن بلوغ اواسط صحراء ليبيا من جهة السودان الجنوبية

ومنها بادية قلعة حاري الى جنوبي بادية ليبيا تعد عنها خمسين درجة وهي تمتد من الاثنى عشر الى الدرجة ٢٠ من الطول الشرقي ومن نهر اورنج الى بحيرة نخامي ليس فيها مجرى ماء والنبات نادرة جداً لكن النبات فيها كثير واهلها عديدون وفيها ادغال كثيفة من الشجر وهي سهل فسح مستوي يكثر فيه بقر الوحش والبنع الرملية فيها كثيرة متسعة الجوانب واذا وقع المطر استمر الماء عدة اشهر في مجاري انهر قديمة عميقة لا تزال جافة قبل المطر ولا تجري به لكن قد تمضي سنة بعد سنة ولا ينفع فيها مطر الا ما ندر جداً ويكون الهواء فيها جافاً جداً حتى لو بقي الحديد المصفول في العراء اشهر لا يعلوه الصدا ويذبل ورق الشجر وسائر النبات وبهلك كثير من الحيوانات الالهية وتهرب الوحشية الى اقطار اخرى الا ما كان من بقر الوحش يصبر على الماء اياماً . ويتنمل القاطنون هناك الى الاقطار الشمالية

الفصل الخامس

بلاد السودان

هذه البلاد عبارة عن النطر الفسج الواقع بين الصحراء وسنغيبيا وسلساتي
جبال فونج وقونو ومجاهل اواسط افريقية ودارفور وما على خط الاستواء من
بلاد مصر . وقد دعاها لاون الافريقي نغريسيا اي بلاد العبيد اي السود . وكان
برث اول من اقنع تلك الاقطار الخطرة فتشجع بعده بعض السياح فمنهم من
هلك ومنهم من قاسى اشد العذابات مقتحمين حتى قلب تلك البلاد فافادوا
العلم فوائد جليلة بشانها فعرفوا ما فيها من الغنى والخصب وان اهلها ليسوا قبائل
متوحشة كما كان يُظن بل اهل مالك واسعة الاطراف عندهم مبادئ من
التمدن والسياسة ولهم تاريخ وآداب وحضارة نقر بهم من بعض شعوب اوربا
وقد اوضح فنجيغال وماثشي ومساري ولنس اموراً كثيرة ما يتعلق ببورنو
وباجري ووداي ودارفور

وكان الشيخ عمر صاحب بورنو قد احسن الالتفات الى سياح المانيا حين
دخلوا بلاده فوافد اليه الملك غليوم امبراطور بروسيا الدكتور فنجيغال بهدايا
نفيسة شكراً له على احسانه فاكرم الشيخ عمر وفادته واعانه في جوب الاقطار
المجاورة في مدة خمس سنوات متتابعة فانصل الى وداي حيث قُتل فوجل
وبورمان قبله وشق في بلاد دارفور وكانت ابوابها مغلقة عن اهل اوربا

واقام نخنيغال مدة في قوقا قاعدة بورنو فقرر عنها تقريرات مفيدة فهي على ما افاد واقعة على مقربة من بحيرة تشاد في وسط سهل ليس خصباً طبعاً غير ان الاهالي جعلوا فيه بساتين حسنة حول بيوتهم وعددهم كان يبلغ ستين الفا على عهده وعندهم نشاط في الصناعة والاشتغال في العلوم واتصالاتهم التجارية كثيرة في الاقطار. وكان ملك وداي قد غزا هذه المدينة وخرّبها فاعيد بناؤها منذ ثلثين سنة

ومن هناك رحل الى كاتم قاعدة مملكة بورنو الاصلية موقعها على الشاطئ المقابل من بحيرة تشاد وبعد ما رجع الى قوقا سافر الى باجري وهي مملكة الى جنوبي تشاد شرقيها وداي وهي من لواحقها وكانت الحرب بينهما منذ عدة سنوات وجنوبيها بلاد اهله وثنبون واما اهل باجري فمسلمون والمملكة حديثة النشأة اي منذ نحو ٢٥٠ سنة. وبعد ذلك سافر الى وداي مصحوباً بوصية من الشيخ عمر فاقام بها تسعة اشهر وهذه البلاد مساحتها كربع فرنسا شمالها بلاد التبوع وغربها باجري وبينها وبين دارفور بقعة يسكنها القبائل العصاة. واهلها لا يتجاوزون المليون وهم عرب رعاة ومنهم من سلالة التبوع

واما دارفور فلم يعرفها قبل نخنيغال من الاوروبيين الا جورج برون سنة ١٧٩٢ والاقطار الاخرى كانت مجهولة فبرحلة نخنيغال عرفت اماكن كثيرة بين تشاد ودارفور واتصل الى الغرب الاقصى من ارض السودان المصرية. وعرف احوال تشاد ايضاً وعرف انه كان ينشق منها نهر اسمه بحر الرجال ويصب في بحيرة اخرى على مسافة نحو ستة كيلومترات الى الشمال الشرقي في بلاد بودلي واما الآن فلم يعد هذا النهر موجوداً وكذلك بحيرة بودلي. واكتشف ايضاً عدة بحيرات صغيرة على حدود باجري ووداي فيظن انها بقايا بحر قديم

ولما رحل مانتشي ومساري قطعاً افرنيقية كلها في سنة وخمسة اشهر ودخلا دارفور عن طريق مصر العليا وعزما على دخول وداي ورعاها بجايته السلطان

علي الى حدود بورنو فلم يفدرا ان يدخلوها لما كان فيها من الحروب الاهلية
فمضيا الى مملكة حوصة فوجدوها نامية عامرة بالحضارة واهلها اهل نشاط
وحق في الاعمال وقاعدتها مدينة قانو اهلها خمسون الفا وازقتها مستقيمة
واشيتها حسنة وفيها مدارس وتجارة وصناعة مختلفة . والدين فيها الاسلام
والسلام فيها والانس والاحسان الى الغريب في درجة ممتازة عن سائر افريقية
ولما رحل لنتس قصد دخول تمبكتو عن طريق الصحراء فخرج من
مراكش بصفة طبيب عثماني وجاب الصحراء بسلام ودخل تمبكتو واقام فيها مدة
وعاد عن طريق سنغال وقرر عن نجاح تمبكتو من عهد برث تقريرا حسنا
فوجد ان اهلها زاد عددهم من ١٢ الى ٢٠ الفا وصار فيها مدارس ومكاتب
عمومية وصارت حاضرة تلك الاقطار المزدققة بها من جهة الدين والعلم والتجارة
وبالاجمال فبلاد السودان كثيرة اسباب النجاح لكن الخشونة غالبية فيها
والعلم ليس له اثر جلي والاستعباد فيها يحيط منام الانسانية ومركزها بين الصحراء
والقبائل المتوحشة في اواسط افريقية وعلى حدودها يبطى بارقتها في سلم
الاداب والراحة



الفصل السادس

افريقية الجنوبية

منذ اوائل القرن السادس عشر استوطن البرتوغاليون ساحلي افريقية الجنوبية واستمرت تلك البلاد بايديهم نحو ثلثمائة سنة وبلاستقراءات الحديثة عرفت تلك الاقطار معرفة حقيقية . فكل ما هو الى الجنوب من خط الاستواء كان يظن قليلاً انه لا يستوطن لقلة ريعه واما الآن فعرف ان خصبة عجيب الا فيما ندر وفيه انهار كبيرة تنشق سهوله وتروي اغواره والنبات هناك في اعظم نمو على اختلاف انواعه وفيه من الطيور والوحوش ما لا يقدر من اصغرها الى اكبرها والمعادن ايضاً غنية ولا سيما فحم الحجر فانه على كثرتة سهل الاستخراج واهم معادنه الذهب والاماس وطبيعة هذا القطر من جهة السكان والحيوانات مخالفة لطبيعة اوروبا . فالغنم مثلاً ليس له صوف بل وبر واما الناس فشعرهم صوفي محض والرجال يرسلون شعرهم والساء يبرزنه وهن يتعاطين الفلاحة والزراعة والرجال يبنون في البيوت يغزلون وينسجون ويحلبون الماشية وهم جراً . واذا تزوج الرجل يدفع لحميه مهرأ والمرأة لا يطالب منها شيء . واهل اوروبا يزعم بعضهم ان الانسان متاصل من القرد واما اولئك فيقولون ان النفس تنتقل بعد الموت الى القرد واهل اوروبا يحسبون اولئك العبيد خشنين واما هم فيحسبون الاوروبيين متوحشين

والشائع ان عقول اولئك صغيرة مع انهم حفيظة اذكي من سفلة الاوروبيين
واللغات عندهم جميلة لطيفة الذوق بخلاف ما يقال عنهم

وكان الانكليز من جهة الجنوب والبرتوغاليون من جهة الغرب والشرق
يكتفون حفيظة احوال تلك الافطار الى ان دخلها ليعنستون فحرك نفوس
السياح لاستقراءها وبذلك تمزق ذلك الحجاب القديم وبعد ذلك ذهبت لجن
خاصة فاقامت على السواحل الغربية املاً ان تصل الى الشرقية باجنياز
اودية زمينز العليا غير انهم لم يصادفوا نجاحاً لاسباب مختلفة . ثم رحل سياح
متفرقون واقاموا في جهات مختلفة من القطر الشرقي وقدموا باكتشافاتهم من
لمبو والى زمينز واشهر الرحلات التي استعملت بها تلك المجهول رحلة سربانتو
البرتوغالي رحل من بنغالا في تشرين الثاني سنة ١٨٧٧ ومعه اثنان اخرون
فاخذوا في طريق اقرب الى الجنوب من التي سار بها كامرون قبلهم ومروا
بارض يقال لها كويلنجة اهلها في غابة الخشونة حتى ان المرأة عندهم تباع بفتيتين
من العرق واربع اذرع من الثياب ولما بلغوا نجد كوكدة انفصل سربانتو عن
رفيقه فذهبا لاستقراء الانهر التي تجري الى الشمال وتصب في زيري فاتيا بفوائد
جمة . واما هو فجمع رهطاً ومضى به لدخول الاراضي التي تصعب فيها سلامة
البض فلما تقدم كان الناس يستنكرون امره ويظنون انه مقدم طليعة جيش
ات لاكتساح البلاد ففر منه الذين استنكروهم وقد صار عددهم نحو اربعين
ففضى اربعة اشهر في العذاب والمشقات الشديدة بين الاخطار ومع ذلك لم
يضعف عزمه وجال في اقطار كانت بيد البرتوغاليين وهي حتى ذلك الوقت
غير معروفة جيداً ولم تؤثر في تمدنها مواصلات تجار العبيد فبقي اهلها على
خشونتهم العظيمة

ولما وصل سربانتو الى نجد كبله وجد تجارة العبيد فيها في غاية الرواج
وكان يجتهد في تخلص جماعات كثيرة من العبيد الارقاء . وتجاوز تلك البقعة
الى ان انتهى الى بلاد الامبولة وهناك امه من البرابرة يقال لهم المكسكة

يعتبرون اذنى ام افريقية الجنوبية يعيشون قبائل بلاروساء احراراً كالوحوش في البلاد التي بين نهري كوبنغو وكواندو وداهم الانتقال لابنامون ليلتين في محلة واحدة ويأكلون اصول النباتات ولحم الحيوانات بلا ملح ومن العجيب انهم من سلالة بيضاء نظير البيض الذين رأهم سنالي في جمها راجارا على ضفة موانسيج . وتقدم سر بابنتو من هناك الى ان بلغ قرية اشتد به الجوع عدها ورفاقه ايضاً فلم يمكنهم تحصيل الطعام الا بنهب القرية ووصل بعدها الى بلاد لويناس فاحسن رئيسها الالتفات اليه وارسل منها قافلة الى بنغالا غير ان السودان بعد ذلك وجدوا انه سبب لتلف تجارتهم فاوغرو عليه صدر الحاكم واغرو اتساعه بالفرار من خدمته ومنعوا عنه الطعام وحاولوا قتله مراراً واخيراً نهب اتساعه ذخيره ليلاً وفرّوا الا ان اوراقه بقيت محفوظة . وعلم بعد ذلك ان رجلاً انكليزياً أسر بامر الملك لاونسى في موضع يبعد ٦٠ كيلومتراً فضى الى هناك وتداخل مع الملك واستحصل منه بعد اطلاق الاسير قوارب ليركب نهر زمبيز وعرف كل ما يتعلق بالقسم الاعلى من ذلك النهر العظيم والانه نهر التي تنصل به وفحص احوال البلاد ومخاضها واخلاق اهليها وما يتعلق بذلك فاختار رجلاً اصدق الاخبار من هذا القبيل

ومن الاماكن المشهورة في جنوب افريقية صنع استمرة الانكليز وسي ترنسوال اشتهر قديماً بان فيه معادن ذهبية وافرة المحصول فتوجهت اليه المخاطر وقصده السياح من كل البلاد . ففي سنة ١٨٦٧ رحل كارل موك وطاف الاقطار الواقعة الى جنوبي لموبو المعروف بنهر التماسيح فوجد آثار اشغال قديمة ظنها آثار استخراج الذهب من تلك المعادن ووجد قرب تلك المناجم خربات ابنية ضخمة قديمة العهد جداً فظن البعض انها من عهد سليمان وان هناك معادن اوفير الكثيرة الذهب وذهب اخرون انها من بقايا امة في اول وصول البشر الى تلك الاقطار . فظهر الآن انها آثار قبائل من العرب استولى عليها البرتوغاليون في القرن السادس عشر . ولما شاع امرها

باخبار كارل موك قصدها الناس وانشئت هناك مدينتان سميتا ليدنبرج
ومرابا فعمرتا في مدة قصيرة وانتشر الاجانب الى مسافة بعيدة منها

وسنة ١٨٦٥ شاع خبر نظير ما تقدم فتهافت الناس الى بلاد يقال لها
غريكلند بين جمهورية اورنخ والجنوب الشرقي من بادية قلعة حاري . وهذه
المقاطعة على ضفة نهر اورنخ في مساحة ١٢٨٠ ميلاً وهي قليلة الماء جداً وفي
السنة المذكورة كان عدد اهله ٢ ألفاً فبعد ان شاع الخبر بوجود الالماس فيها
تضاعف عدد سكانها في بضعة اشهر واخذ الناس يهبشون الارض من كل
وجه فوجدوا بعض اشياء دعت الى تزايد اجتماع الناس اليها

ولم يكن ما حدث امراً جديداً ففي ايام الحكومة الهولندية سنة ١٧٥٠
وجدت خارطة مرسوم عليها الاماكن التي فيها الالماس فحضرت الارض كثيراً
وحدثت اسباب تنوسيت بها تلك الاعمال الى ان جددت في العهد المتأخر
المذكور . وقد عرف ان الاهالي كانوا منذ مدة طويلة يستعملون قطع الالماس
للثقب لا للتخلي بها . فقبل كانوا يخرقون بها الارجحة

وسنة ١٨٦٧ دخل احد التجار ارضاً يعملها رجل بويري اسمه يعقوب فراى
الاولاد يلبعون بحصى شفافة لامعة ومن هناك رجل يصطاد النعام فانفق
هو والتاجر على ان يتحنا هذه الحصى لعلها الماسية فحزوا بها لوجاً من الزجاج
وساموها فاخذ احدهم واحدة منها لكي يبيعها وينقسم ثمنها بين الرجل البويري
ورقيقه فبلغ ثمنها ١٢٥٠٠ فرنك . فشاع الخبر بسرعة البرق وكادت الفتنة
تضطرم في المقاطعة المذكورة وانفق ذلك في الوقت الذي فيه انخفضت اسعار
الصوف وحدث وباء اتلف البهائم

ثم وجد الاوروبيون قطعاً اخر الماسية واتى الكفرة ايضاً بنقطع كانت
عندهم من عهد طويل وحينئذ وجد الحجر الشهير باسم كوكب افريقية الجنوبية
اشري اولاً من احد الكفرة بعشرة الاف فرنك وبيع بثلاثمائة الف فرنك ثم
بلغ ثمنه ٨٥٠ الف فرنك فاشتره اللورد ددلي وبني يده

وكان يظن ان مصدر الالماس النهران اللذان يصبان في نهر اورنج ونهر
وال ثم علموا ان بقعة في قلب البلاد فيها كميات وافرة فروي عن خبرها
ما يأتي

كان رجل فرنسوي الاصل في بقعة من الارض يعملها فانهما بما يحصل له
من محصولها فاتفق بوماً انه رأى جماعة عليهم هيئة الجفاء قد اقتحموا ارضه اقتحاماً
مرتباً ولم يكن له اطلاع على ما جرى من اكتشاف الالماس في النهر كما مر فخاف
منهم لانه ظن ان قصدهم اكتساح ارضه وطرده منها فجمع كل ما كان له من
الخفيف والثقل في عجلة وفر في جوف الليل وهو يندب سوء حظّه وبعد قليل
اهتدوا الى مكانه واتوا يطلبون ابتياع ارضه فليشدة خوفه لم يشأ ان يتألمهم حتى
اقتنعوه بالبرهان ان مرادهم اخذ الارض ببيع برضيه وعرضوا عليه ١٢٥ الف
فرنك ذهباً فاطمان قلبه واجابهم الى طلبهم فقسوا الارض اقساماً مربعة وصاروا
يخفرون فيخرج لهم الالماس مع التراب وعدل المحصول السنوي بأكثر من ٢٣٧
مليون فرنك لكن كانت الصعوبة شديدة في الاقامة بتلك الاراضي الفترة
المخالفة من الماء والنبات فكان الذي عنده بشر في احدى جهاتهما بيع الماء
بثمنه فضة فرياً وكان يلزم استغلال الخطب من اماكن بعيدة جداً حتى ادخلت
آلة بحارية سنة ١٨٢٥ وكان طن فحم الحججر يكلف من انكلترا الى غريكند
نحو ٢٠٠٠ فرنك والهواء هناك شديد التغير فالليل في اشد البرودة والنهار
شديد الحرارة والعواصف لا تطاق لعنفها والرعد والبرق يكونان هائلين جداً
وكهربائية الجو في غاية السرعة والكثرة حتى لو مرّت اسنان المشط في شعر
الراس تولدت الكهرباء وتاتي الرياح الحارة بغبار كثيف كالضباب المنشر
فيحرق الاعين والحياشيم فلا يستطيع الاقامة هناك الا الجلود الذي يساعده
التوفيق ولذلك صار من الدور استخراج الالماس . ثم عقدت شركات عظيمة
واتخذت وسائل مختلفة لتسهيل العمل فحفت عنها المشقة من جهة لكن خانتها
النعلة من اخرى فانهم كانوا يسرقون ما يستطيعون رغماً عن التشديد في المحافظة

والصرامة في عقاب من يشعرون بسرقة فقيل ان معدل ما كان يُسرق يومياً
من الالماس يبلغ ٢٥ في المئة

وما يذكر في ما تجاوز غريكلند الى الجنوب تربية النعام وذلك في مواضع
على تخوم برية يقال لها الجوف جذبة لكن لارمل فيها واقعة الى الجنوب من
نهر اورنج وطريقة التربية ان تؤخذ الانثى مع رثالها . تباع باكثر من مئة
فرنك . واذا لم يجد المشترى انثى تستخدم لثف البيض طريقة صناعية كما
يفعلون مثلاً في بلاد مصر ببيض الدجاج . وتوضع الرثال اي الذراخ في
حظيرة مسيجة فاذا صار عمرها ثلاث سنوات ياخذون من ريشها ما يوافق
للتجارة فيكون محصول الريش السنوي من ١٠٠ الى ١٥٠ فرنكاً عن كل
فرد منها وقد اتسعت هذه التجارة جداً حتى قيل ان بعض البيوت التجارية
تصدر كل شهر عشرة آلاف كيلو من الريش

واهل تلك الاقطار العجيبة صنفان متناقضان احدها آخذ في مراقي
التمدن ويقال لهم البوير والآخر في اقصى درجات النوحس وهم البوتجسان
اي انسان الغابات لانهم يعيشون كالوحوش في الادغال والفياض

فاما البوير فيهم من سلالة المهاجرين الهولنديين قديماً حين كانت ولاية
الراس من املاكهم فلما غلبهم عليها الانكليزانفقوا من النفاء تحت سيادتهم فهجروا
بلادهم وانشأوا مستعمرات نانال واورنج وترنسوال . وانضم اليهم مهاجرون
فرنسيون طردوا من بلادهم على اثر مؤتمرننت فتآلفوا جميعاً وتناسلوا وخرجت
منهم اجيال شداد النية كزار الاجسام ولم يبق عندهم من الدين الا اثر قليل
فيقتضون ايامهم في الصيد على الخيل ويرعون المواشي في مراعي خصبة متسعة
لا يمنعهم منها الوطنيون وصار من عادتهم ان يجتمعوا في الكنيسة مرة في السنة
وهذا الاجتماع ياتيهم الناس من كل الاقطار واطراف البلاد ويستمر اسبوعاً .
ومن عادة البوير ان يجتمعوا الذهب في منازلهم ولا يشتغلون به وينوارثونه من
اجيال قديمة فقد يكون عند الواحد مبالغ جسيمة يكثرها في اماكن لا يعرفها غيرهم

ولهم في الحرب قوة وجاد وحسن تدبير وكثيراً ما ضايقوا الانكليز في
حربهم الاخيرة معهم

واما سكان الغابات فهم نموذج الانسان في اول احيائه المتوحشة فانهم في
ادنى درجة من سلم الامم ويحسبون اذية على القبائل المجاورة لهم فلم يزل الناس
يطردونهم من قطر الى آخر حتى استقروا في ناحية قاحلة يباب لا يثبت فيها
الا قليل من العويص . وهم صغار النامات تخاف الابدان جداً هيئتهم وحشية
اقرب الى الثرود الكبار مما الى الانسان . لا لباس لهم الا ازار للبعض من
جاد الحيوانات يسر عورتهم وليس لهم نظام بشري ولا صناعة ولا زراعة ولا
مواشي يعيشون من الصيد والسرقة وقد يقضون اياماً طويلة في المجاعة فيغزون
جيرانهم تحت الاخطار ليحصلوا ما يسدون به الرمق . والقبائل القريبة منهم
يعاملونهم معاملة وحوش مضرقة فيصطادونهم صيداً ويقتلونهم بلا سبب ولا
مبالاة وكثيراً ما يستعبد البويرة من يحصل يدهم منهم لان لهم مهارة في وجدان
الحيوانات الاهلية اذا ضلت . وطريقة اسرهم انهم يرصدونهم ويخناطون بمنازلهم
وهي اكواخ خفية جداً ويطلقون البنادق فيخاف المساكين لان صوت البارود
يرعبهم جداً فيبقون في اماكنهم لا يستطيعون الفرار فيقبضون عليهم وبلاطونهم
اولاً ويعطونهم زاداً كثيراً مختلفاً فيغترون ويمصون معهم الى الحنول وهناك
يستخدمونهم لعمل الارض بالقوت الضروري

وليس لهؤلاء الوحوش عيال معروفة فلا يعرف الولد الامه حتى اذا ترعرع
تركها وتركته والذي يشخ منهم ويعجز لا ياتنبت اليه احد فيموت جوعاً او تترسه
الضواري

واسبب شناء البدواة والجوع ونحو ذلك يكادون ينقضون في الجهة
الشرقية من بادية قلعة حاري واما الذين الى غربها فيستخدمون لشدة مهارتهم
في سلوك الغياض والادغال فيعيشون عيشة حسنة مع من يجاورهم

الفصل السابع

في الافريقيين عموماً

ان الاختلاف الذي بين القبائل الافريقية وعاداتهم ولغاتهم ليس اقل مما بين محاصيل اراضيها المتنوعة . ويقسمون عموماً الى قسمين سود وسمر وقبائل السمر اكثر بكثير من قبائل السود الاصليين ولا يزالون يزدادون عليهم ويستغرقون معظمهم وقواهم العقلية اعظم من قوى السود . والذين في غرب افريقية من السود قد دخلوا جداً لافراطهم بالمسكرات . والهيئة الاجتماعية عند السمر حسنة النظام حتى ان بعض شعوب اوروا يحسبون دون بعضهم

وفي افريقية كل انواع الحكومات من جمهورية ومطلقة ومشيخة ومجاسية حتى ان عند بعضهم رتباً سياسية وخاصة مبنية على نظمات اصولية حسنة المبادئ لكن هذا محصور في قسم صغير لان الافريقيين اجمالاً كالارقاء لاهل السيادة والمرأة عندهم منخطة المقام جداً تستخدم للاعمال والاحمال وتباع كائنها من اصناف التجارة ولا تعتبر زوجة حقيقية وقيمها بكثرة اولادها . والتي لا تستخدم في الاعمال الشاقة يكون مقامها كقام البهيمه التي يرام لحمها ولبنها وهذا بحسب اكراماً لها كما نكرم البهيمه بحسن المعاملة

لكن في بعض الافطار السودانية مثلاً وما ناورحها تكون للمرأة سيادة خاصة

خلافاً للشعوب الاخرى حتى ان الحكم يكون بيدها في بعض الممالك فملكته
رونده مثلاً بين موانيسج وفكتوريا تيانزا تحكمها امراء قائمة بنجاحها وسلامها
والنظامات العسكرية في افر بقية ما يستحق الذكر مع قطع النظر عن
القبائل العربية والحشية المعروفة احوالها فينضي العجب من ينف على عسكرية
بعض ممالك السودان ولا سيما مملكة اوجنده شمالي فكتوريا فقد ذكر ستانلي
بتاكيد ان عسكر الامبراطور ميمسا كان في بعض حروبه مولداً من ١٥٠ الف
منازل و ١٠٠ الف بين نساء واولاد وعيد والمعسكر كان مشتملاً على ثلاثين
الف مخيم كلها بنيت بناءً حسناً في ساعات قليلة يبيت فيها ٢٠٠ الف نفس

وبعض ام افريقية تستحق الذكر الخاص لغرابة احوالها . فالقبائل
الفاطنين على ضفاف النيل الاعلى الكثيرة المستنقعات تناسب صفاتهم احوال
الارض التي يعيشون فيها فهم بالنسبة الى البشر كالطيور المائية بالنسبة الى
الطير فالطول اقامتهم في المستنقعات قد صارت ارجلهم مفلطحة يتمكنون بها من
الوقوف على الارض الوحشية ولا يفرقون كما تكون الطيور الغشائية الارجل في
الماء . وسوقهم دقيقة طويلة ليس فيها لحم ورؤوسهم صغيرة مضغطة ورقابهم
طويلة وينفون ساعات على رجل واحدة يرصدون السك ليصطادوه واذا
مشوا تكون خطاهم بطيئة متسعة لطول ارجلهم

واما اهل اوجنده فبعكس هؤلاء مع ان المسافة بين البلدين ليست طويلة
فانهم جيرانهم ومع ذلك فهم اهل نجاح ومعرفة وهيئات حسنة . وبجانب هؤلاء
في جبال جبراجا قبيلة من البيض انت من اونيورو وبتداخلهم في الانساب
مع القبائل المجاورة لهم اختلفت طبيعتهم وتغير لونهم بالتدرج غير ان الاشرف
منهم لا يتزوجون الا من انفسهم ولذلك قد بقوا على اصلهم . وهؤلاء القوم
للاجبون الحروب فباقل فتنة يلجأون الى شواخ الجبال بين الفلوج فلا
يستطيع اعداؤهم لحاقهم فيختفونهم لانهم جبناء

واقام شوينفرت بينهم مدة فعرف بتدقيق احوال الطائفة منهم المشهورة

باسم نيام نيام التي ذاعت عنها حكايات مختلفة فكان يقال ان لهم اذناناً والحق ان هذا المظهر ناتج عن زيمهم في الملبس وذكر شوينفرت انهم اشد فطنة من السود وشعرهم غير صوفي بلقونه عفاث وهيئتهم بعيدة عن هيئة سائر جيرانهم وعيونهم كبيرة مشفوقة على شكل اللوزة وحواجبهم كثيفة وانفهم مستقيم عريض مستور في كل علوه وبذلك يفرق هؤلاء عن سائر اهل افريقية وهم يحبون الحرب والشغل والصيد ولم في ذلك حكايات . واكل لحوم البشر مشهور عندهم استدل على ذلك بكثرة المراقبة وعرف ايضا ان منهم عدداً قهلاً لا يأكلون لحم اعدائهم

وبين الدرجة الاولى والدرجة الثانية من العرض الشمالي الى جنوبي ارض نيام نيام مواطن امة يقال لها العفاء وهم صغار الاجسام جداً ولم في الحكايات والسير المتعلقة باواسط افريقية مكان عظيم . فاذا سافر الانسان في النيل الاعلى ووصل فوق غندوروقو وسار في نهر جور او طاف في جوار ألبرت نيانزا يقول له رفاقه من اهل البلاد انه سيرى في اواسط افريقية قوماً من القزم يعتبرونه بخصومات شديدة . ولم في الصيد مهارة وحذق واقدام حتى يهجمون على النيل يرمح بسيفهم يطاردون غزالاً . فاذا دنا احداهم من الفيل يرميه سبله في عينه ثم ينغمس تحت بطونه ويطعمه بالرمح ويهرب بسرعة قبل ان يصل اليه خرطوم الفيل وهم الذين يصدرون على الاكثر العاج الوافر الى ارض السودان المصرية . ولا يبلغ طول الواحد منهم اكثر من ذراع ونصف غير ان شوينفرت سعى بينهم وهو يقيس الاجسام فوجد ان اطولهم لا يبلغ اكثر من متر ونصف وينتشر حكاهم السودان ان يكون من جملة حشهم جماعة من هؤلاء للتفكه باعمالهم

وبالنظر الى التركيب الطبيعي يقال ان الاسود ارشق في الاعمال البدنية من الاوروبي الا ان عضلة غير قوي . واما بالنظر الى القوى العقلية فالسود في ادنى درجة بالنسبة الى البيض لانهم لا يعرفون الا الملاهي الخشنة ولا يفهمون

من الافكار الا ما نتيجة مادية وتأثيراتهم اذا حدث حادث تكون عرضية قصيرة الوقت ويوصفون بسلامة الطوية وعدم التعرض للاذى في الاماكن التي لا تشد بها طبائعهم ولا يهينهم تجار العبيد واذا أحسن اليهم تحسن خدمتهم وتطيب انفسهم جداً ومن عوائدهم المستفجة التي تشع سخنتهم وتزدري بها اجسادهم استعمال الوشم والتخديش والقطع في بعض اعضائهم ثم دهن رؤوسهم وابدانهم بالتراب اللزج والادهان استمراراً حتى تولد في ابدانهم الهوام بكثرة عجيبة لتراكم الاوساخ . وكثيرون منهم يدهنون ابدانهم بشحم ورماد لاثاء ادغ الحشرات . والخلاعة في بعض القبائل فطرية . وفي جهات النيل الاعلى يتخذون اطبايهم وادهانهم من روث البقر وبول ومن الرماد ويعسلون آنية اللبن ونحوها بيول البقر استعاضة عن الملح لعدم وجوده عندهم

والوشم والتخديش امر عام عندهم وتخرج ابدانهم بمخطوط طويلة وقالب حافتي الجرح الى الخارج يورث اثرًا تخينًا قبيحًا ويتقربون آذانهم ويكبرون بها بطرق مخالفة لطريقة هنود البرازيل ويعلمون فيها ادوات مختلفة وكذلك تنعل النساء بانوفن وشفاهن وقد يعلقن في الشفتين قطعاً مستديرة من الخشب وكلما كانت المرأة بارعة في التبرج والغنج تكون الخشبة اكبر . واحسن الحلي عندهم الفلاند . واكلة لحوم البشر يتخذونها من اسنان التلي واذا لس الانسان قلادة من اسنان من قتلهم بيده كانت قيمتها كبيرة جداً

والعاج في تلاح نهر كونغو كثير جداً ونخس الثن لان التجار لم يتصلوا الى تلك الاقطار ويقتوم حلينهم ويعلمون منه اساور وخلاخل وادوات كثيرة لا طائل تحنها . وذكر ليفنستون وكامرون وستالي عند دخولهم ارض منيامة ان نصف الكيلو من العاج كان يساوي اقل من غرش

وفي وادي زمبيز وبعض تلاح كونغو الاعتبار الاول للادوات النحاسية والنساء يكثرن من التحلي بها حتي يكون على الواحدة ما وزنه اربعون ليرة . وقد يكون ثقل الطوق النحاسي وهو حلقات عديدة تلف بها العنق اكثر من ١٥

كيلو ولذلك اذا ماتت المرأة يكون اول ما يفعله زوجها انه يقطع راسها ليبقى
له الطوق

ومن غريب عاداتهم جعل اسنانهم ذات رؤوس حادة اما لسهولة غلبة
الخصم خصمه اذا تدانوا في القتال او لسهولة مضغ اللحم النيء . وعلمية ذلك تقوم
بان ينام الطالب لذلك وينقح فاهه ويضع فيه خشبة لينة لئلا تنكسر السن
بالعملية . ويركب العامل على صدره وباخذ سكيناً حادة جداً ويضعها على جانب
السن ويضرب عليها بحجر ضرباً خفيفاً حتى تنفصل الشظية المراد نزعها من
السن وتصور بالشكل المطلوب . وقد يردون جوانب القواطع بحجر المبرد
بين كل سنين فتصير بينهما فرجة زووية

ووجود مثل هذه العادات عند هؤلاء الناس يؤذن بتوحشهم والحال
ان كثيرين منهم حضريون يتعاطون الزراعة بنشاط ومنازلهم اكثر انقائاً
ونظافة مما يرى في بعض قرى البلاد المتمدنة . وفي جوار زمينز الاعلى وكونغو
الاعلى حيث لا انصالية لهم بالاوروبيين وجدت عندهم صناعة في البناء تدل
على حذق شديد

واما اطعمة اهل افريقية فتدل في الغالب على اقبح ذوق واخلاق خشنة
واظهر مثال لذلك سكان ضفاف النيل الاعلى وكونغو . فالدنة والشلوق
امتان معروفتان بكثرة الماشية ولا يذبحون منها شيئاً للاكل بل ياكلون ما
يموت منها بمرض او غيره . فدأهم الصيد فان قلّ اديهم لجأوا الى اكل
الجردان والضباب والحيات . وامة النجوة تفعل اقبح من ذلك فلا ياكلون اللحم
الا اذا اتن ويطلبون بقايا الحيوانات التي تترسها الضواري والجوارح فيدخنون
اللحم اذا كان جافاً باليمن ويسهل هضمه على زعمهم . ويحبون كثيراً محنويات
كروش البقر حتى الدود الذي يتولد فيها واذا مات انسان او قبل يصبرون
على جثته حتى تصير جيفة منهترئة فياكلونها . ولذلك قد يدفنون اللحم في التراب
الى ان يفسد وقد يحفظون لحم البشر مقدداً الى ايام المجاعة

فهذه العادات المستهجنة الوحشية تدل على شدة اعتقادهم الخرافات وهي كثيرة عندهم تضيق دون تفصيلها بطول الدفاتر وأكثرحكام الداخلية يودون بناءها في الرعية ليحفظوا بها ميزانية سيادتهم ونفوذ سلطتهم. ومن أفعبها عادة اهل دهوي عند تنصيب الحاكم الجديد فانهم يذبحون له ذبائح بشرية لا اعتقادات وحشية . وقبيلة بنجلة الفاطنة على ضفة كوندو وهو نهر يصب في كونغو من الجنوب ومن عاداتهم ان ملكهم الجديد يعمل له وليلة مولده من ربع نور وربع كبش وتخذ انسان تسلق معاً . ثم يقطع ساقبة وهو واضع رجله في بطن احد الاشقياء . وفي جهات البحيرات لكل قرية شجرة عظيمة تعلق بها جاجم القتلى في الحروب وفكوكهم وقد يجد المسافر في الطريق اشجاراً معلقة بها هياكل بشرية بارجلها والرووس الى الاسفل . وفي اوروا بين زيري وتغانيثا تقوم حفلة جنازة الملك باعمال ليس يسع بافطع منها فاولاً بجول مجرى النهر الذي يكون في ذلك المكان وبعد ما ينشف المجرى الاول بمحرون فيه اخدوداً ويطرحون فيه عدة نساء في قيد الحياة في الطرف الواحد من هذا اللحد تكون امرأة دابة على يديها وركبتها لتكون مجاساً للبيت وتحمل الجنة احدى ارامله وتجلس اخرى تحت رجله وتكون البواقي كفراش وغطاء له يدفن في الحياة الا الزوجة الثانية فانها تقتل قبل ان تدفن . وقد يبلغ عدد نسائه المدفونات اكثر من مئة ثم ياتون باربعين او خمسين عبداً من عبيده ويذبحونهم على قبره ليروا ثراه بدمائهم . وبعد هذا يردون النهر الى مجراه

واكل لحوم البشر في افريقية عادة قديمة جداً ولا تزال سائدة فيها اكثر مما في غيرها من اقطار الارض البربرية وقد بحث الباحثون في الاسباب الداعية الى ذلك فنسبوها الى امرين الاحتياج الى الاطعمة والاعتقاد فوجد السباح ان الاقطار التي يكثر فيها هذا الافتراس قليلة الخير فاقدة الخصب ليس فيها من الحيوانات ما يسد العوز وذلك اكثره في الاقاليم الاستوائية . ووجدوا ان الذين يمارسون الحروب يحبون ان ياكلوا لحوم اعدائهم القتلى

ولاسيما اذا كانوا ابطالا موصوفين بالشجاعة والبطش لاعتقادهم ان هذه القوى التي كانت فيهم تنتقل الى الاكل بابتلاع لحهم . حتى انهم يذبحون الاسرى لاكل لحومهم ويقصدون قتل من يقدرون عليه بغير حرب . والذين يموتون بالامراض في قبائل كثيرة يبيعهم اقاربهم كاصناف التجارة فياكلهم المشترون وقد يتركون الجيف حتى تفسد كما ذكرنا آنفا . وفي الحروب يتغصون على القتلى والجرحى انتفاض النور وياكلون لحهم ويشربون دمهم بشراهة شديدة . وذكر سبيك وبعده ستانلي ان قبيلة على الشاطئ الشمالي الغربي من تنغانيا لا يحرثون ارضهم ولا يزرعون حبوا ولا بقولا مع ان التربة في غابة الجودة والحصب بل ياكلون الجيف ولحم البشر نيئا واذ يزرعون ان كل الناس تفعل فعلهم تراهم يحافون ويهربون اذا قدم التجار بلادهم واذ اشعروا بان معهم مريضا مقارب الموت يطلبون ان يشتروه وهذه العادة غالبة عند القبائل المجاورة لكونغو الاعلى . وفي بلاد اوريزا راي السياح حول القرى كثيرا من المحاجم مصفوفة صفوفًا مرتبة تدل على ان ذلك المكان كان مكان وليمة قائمة بلحم البشر . ووجد ستانلي صفًا في قرية واحدة عدده ٨٦ حبيبة . وطالما طارده البرابرة ليفترسوه ورفاقه وهم يصيحون اللحم اللحم وقد راوهم غنمة شبيهة . ومنهم جماعة اعجبهم جدا فصاحة التراجمة فاشبهوا ان ياكلوهم وطلبوا ذلك الى السياح ولام ستانلي قوما لانهم قصدوا قتله او قتل رفاقه وهم لم يضرهم بشيء فقالوا لو كنتم في مكاننا لما تركتم لحوما شبيهة كحومكم تفوتكم فلم يجيب ذلك جوابا وفي ذات يوم اتبعه من منامه في الصباح فوجد شبكة على كل جماعة نصيبها البرابرة ليلا لئلا يتمكنوا من الهرب وليسهل عليهم قتلهم واكلهم

ومن الامم الافريقية المشهورة باكل الناس امة يقال لها موبوطو مع انهم اصحاب عقول وفنون ونظامات ويشغلون الحديد والنحاس وطلالما يغزون القبائل المجاورة لهم فينهون المواشي ويقتلون الناس وياكلونهم وياخذون الاسرى الى منازلهم ويتقسمونهم وياكلونهم عند الاقتضاء وقد يدخون اللحم

او يغلونه ويحفظونه مدة وشهد شو بنفرت باقامته عندهم ان هذه العادة عندهم
كمادة اكل لحم الضان والبقر في البلاد المتقدمة . وانما يؤثرون لحم الانسان على
لحم الحيوان ابقاء على المواشي لينتفعوا بمحاصيلها . وفي بلاد غرب كندا كهوف كثيرة
ملوثة من جماجم البشر وعظامهم وهناك آثار كثيرة تدل على ولائم بشرية
حافلة كانت تقام فيها

وتجارة العبيد في افريقية اشهر تجارة تحصل منها الارباح الوفيرة فلا يكاد
صنع منها يخلو من اسواقها الرائجة والغاء الاستعباد في البلاد المتقدمة لم يمنع
بقاءه في اواسط افريقية وتعاطي التجارة سرّاً . ولما كانت الحرية مطلقة كان
يصدر كل سنة من سواحل افريقية نحو ٢٥٠ الف عبد

ولما كثر ذلك ما عاد المساكين يعتبرون الحياة بشيء ولا عاد للحرية
عندهم قيمة وصاروا يبيعون انسابهم واولادهم وراى ليفنستون بعضهم يبيع الولد
من اولاده بما يساوي عشر بارات عندنا . وبعد تردد العرب الى جهات
منايا هذه التجارة كان العبد يباع بيارتين وما ذلك الا لكثرة الدواعي التي
لا تجعل لهم قيمة كالذهب والسلب والقتل والحريق ونحو ذلك



الفصل الثامن

مخاطر افريقية

بالمجد والثبات والهم العالية ولخدمة العلم الشريف والمحبة والشهامة قد
انصل السباح الى النتائج المطلوبة من احوال افريقية مخاطرين بالانفس باذلين
مالاً لا يقدر بين الاهوال والمشقات والتهديدات ومقاومة المصاعب المختلفة .
فلا بد ان الجمهور يشكر فضل هؤلاء الابطال العلميين ويتأسف على من فقد
منهم شهيد المعارف

ومن المعلوم ان رحلات مثل هذه تقتضي مخبرة خاصة في الجغرافية
والطبيعية وقوة عقل وحسن تدبير واقدام على الاهوال ونفوذاً ادبياً ومادياً
وهذه المزايا لا تنفق الا لافراد من عالم الفضل

واذ كان لا يتيسر لكل من هؤلاء الافراد استصحاب رفقة تقوم بسد
الاحتياجات الدفاعية والتخليص من المهالك الشديدة راينا بالاختصار ان
كثيرين منهم سافروا نائيين في مجاهل الارض اما واحداً واحداً او اثنين
اثنين فالاغتماد اذن بشهامة القاصد الشخصية لا بكثرة وسائله المادية ومن
اشهر هؤلاء المقتحمين اهوال اواسط افريقية لينستون وبرت ونخبغال
وشوينفرت وكامرون وسربابتو وسافرنيان دو براتسا وستاني وغيرهم

ولكن لا بد لاي من كان من مادة اولية لا يستغنى عنها في مثل هذه الظروف سواء كان وحدة او مع جماعة وهذه المادة هي سيدة المواد ودولاب الكون "المال" لان اللوازم التي تطرأ على السائح في الغربية اكثر بكثير من التي ينفق عليها في وطنه اما لاقتناء ادوات او لاقتناء الزاد او لارضاء خواطر اصحاب النفوذ في تلك الاقاليم ونشر التخف والطرف بين الشعوب فكان غنى انكثرا متكفلاً بتشيط رجالها فنالت قصب السبق في الاكتشافات الافريقية وفازت بالافتخار في ذلك على غيرها من الامم الاوروبية

ثم ان الشجاعة والمال لا ينفيان المخاطر ولا يمنعانها فقد تعرض للسائح اكبر تهلكة في اول بلوغه البلاد التي قصدها قبل ان يقوم باجرائه . والمخاطر في افريقية عديدة ومتنوعة . فاول كل شيء بحول دون مراة استنكار اهل البلاد فلا يتيسر له التجول بسهولة لان ابن افريقية لا يعرف من امر الاسفار الا مقصداً واحداً وهو التجارة فالسائح الذي لا يتظاهر باسباب التجارة تلقى عليه الظنون ويرجم بالاحداق وطالما تسد دونه الطرق بهذا السبب ويتناقض الثقات ولاة الامور اليه في تلك البلاد والتاجر ايضاً تعرض له مثل هذه الامور لتحاسد القبائل فاذا دخل بلداً يمنعه اهله عن تجاوزه الى غيره لئلا تنوتهم فائدة تجارته او يخسروا منها شيئاً . فأدت التجارب الى ان يختار السائح طريقة في البلاد الخصبة القائمة بها اسباب الزراعة لان اهله لا يكون فيهم الطمع وشدة الحرص كما في الاماكن القليلة الخيرات . ثم تختلف سهولة دخول السائح باختلاف السواحل التي يدخل منها فالداخل من السواحل الشرقية يتيسر له تخال البلاد لكثرة الانهر وارتفاع الارض بحيث لا يكون لمصبات الانهر مستنقعات ولا عندها غدران راكدة . واما من جهة الساحل الغربي فالارض مستنقعة ومصبات الانهر كثيرة المستنقعات والغدران تولد الامراض الحموية والوبائية وغيرها

ومن اية جهة اراد السائح الدخول ومعه من المال مبالغ جسيمة ونفقة

واسعة يجب اول كل شيء ان يستاجر جماعة وافرة من اهل البلاد لحل
اثقاله وحرساً للذئب عن نفسه عند الاقتضاء . واذ يعلم حملة الاثقال باحتياج
السائح اليهم يطعمون في الاجور طمعاً فاحشاً فيقتضي اياماً يساومهم ويخايرهم اما
اجملاً او افراداً حتى يتفق معهم على ما يرضيهم . ثم تعرض صعوبة اخرى في تغيير
الاسباب التي بنالونها فقد ياتي غداً من اخذ اليوم نقوداً مثلاً ويطلب عوضها
قطناً وقد ياتي من اخذ ثوباً ويطلب بدلة شريطاً معدنياً وهكذا . وقد يلتزم ان
يتفق عليهم اموالاً كثيرة قبل ان يتم له العدد الوافي ويتيسر مسيره في الطرقات
ويجب ان يكون معه من البضائع ما بين فاش وماعون ومتاع وادوات ما
يناسب ويكفي كل بلد يدخله للمنايضة والهبات وغير ذلك . ففي هذا البلد
مثلاً تروج الثياب الزرقاء وفي الآخر الثياب المخططة وفي ذاك المنقوشة وفي
غيره يرى ان عشرين ذراعاً من النسيج لا تساوي قطعة من سلك معدني وفي
سواه يفضلون الحديد على اللائىء وبعضهم يؤثرون الخردة على نفائس
الملابس وبعض الثبائل لا ترى في منام المسكرات شيئاً من التحف المصنوعة

واللؤلؤ مطلوب اكثر من غيره لكن لا يرضاه الواحد بالشكل واللون
والهيئة التي يجبه بها الآخر فالبعض يطلبون ان يكون منظوماً عقوداً والبعض
اساور وهولاء يفضلون الابيض ولا قيمة عندهم لاسواه وغيرهم يختارون الاحمر
وهولاء يرغبون في اللائىء المستديرة والواثك في المستطيلة وهلم جرا . فليتصور
القارىء كم من الصناديق والرزم يجب ان يستصحب السائح وكم من الناس
يستلزم لنقل هذه الاثقال اذ لا يحملون على الدواب الا الجمال نادراً والرجل
لا يحمل اكثر من عشرين رطلاً عادة فعلى هذا لا يكفي السائح اقل من ٢٠٠
رجل يكونون معه في كل طريق يربو ومشاربهم مختلفة فلا يسهل عليه ان
يرضهم

وفضلاً عما تقدم يجب ان يكون معه ذخيرة كافية من زاد وخيام ونحو
ذلك فقد يتفق انه يصل الى مكان لا يجد فيه شيئاً من الطعام ولا الصيد وقد

يصل الى محلة لا يبيعونه بها زاداً الا ببضاعة توافقهم فان اتفق خلوه منها مات هو ورفاقه جوعاً . وفي بلاد السودان يكون الامر اقبح من جهة اختلاف مشاربهم في انواع البضائع لكن توجد واسطة يمكن اتخاذها لارضائهم وإيتياع الزاد منهم وذلك انهم يتعاملون بنوع من الصدف يقال له كوري وتر يد قيمته كلما تقدمت في الداخلية وهذا الصدف يوتى به من سواحل زنجبار وآسيا ويصل الى دهوبي ومنها يتوزع في داخلية البلاد والانكليز يجلبون منه كميات وافرة من بنغالا وقيمته هناك عشر قيمته في واسط افريقية في السواحل ينظفونه فلتأخذ كل فلادة مائة صدفه واما في الداخلية فيعدونه واحدة واحدة وكل ٢٥٠ صدفه تساوي قيمة فرنك . والجمل يحمل منها في الداخلية مائة الف صدفه واذا جمع الرجل بضائعه واستوفى لوازمه وكان الفصل القادم عليه لا يوافق لدخول تلك البلاد فند يقيم اياماً مقاسياً العذاب من المحاحات رفاقه وقد يضطرونه الى السفر بالف حيلة فيدهم فصل الشتاء ويقامي من شدة الامطار وتزايد المستنقعات اهوالاً شديدة وقد يهلك هو وكل رفاقه فعليه ان يجتهد في مداراة جماعته الى ان ياتي الوقت المناسب ولذلك توقفت رحلات كثيرة عدة اشهر لا تستطيع السفر . وكثيراً ما عدل السائح عن الرحيل في السواحل الغربية لقلّة وجود الحمالين بعد ان يسعى في جمعهم مدة سنتين . وقد يتفق ان هؤلاء الخائنين يصلون معه الى داخلية البلاد ويتركونه لاسباب مختلفة وهناك الويل

واعظم سبب لترك رفاقه اياه مداخله وكلاء التجارة والتجار الذين مصلحةهم في البلاد التي يدخلها فيأتون سرّاً ويغترون الحمالين او يجندعونهم ويخوفونهم من اخطار الطريق ويوسوسون اليهم بكل مكر فيصيح السائح وليس عنده احد فاذا لم يتيسر له جمع غيرهم يضطر ان يترك جانباً كبيراً من بضائعه ولا يتق ان يودعه احد الا هالي لئلا ينهب فليس ثم الا وسيلة واحدة ليكفي شرهم وهى ان يحرق ما لا يقدر على نقله

واحياناً يجناز المسافر مسافة طويلة من الطريق براحة وطأينة ثم تعرض الصعوبات فجأة فتقلب عليه نوايا الاهالي ويطعمون في بضائعهم والروساء يجلسون امتعته وبعد ان ياخذوا شيئاً كثيراً من هباتهم يطعمون باكثر منها ويستعملون اهمية ما معه فيتمامرون عليه ويدبرون على قتله وقتل كل ايض معه وينتهبون البضاعة . فيلتزم ان يستصحب رجالاً اولي ناس وشدة بمحمونة عند الاقتضاء ويفتخون له الطريق في القنائل الجافية ولذلك اتخذ ستانلي في رحلته الثانية ثلثمائة رجل كلهم بالبنادق

وليس الناس فقط يحملون دون مرام السياح بل قد يلاقي الصعوبة والشدة من الاقليم والارض التي يمر فيها فان اخطار فصل الامطار في الاماكن الاستوائية عنيفة جداً . وغياض الاراضي الخصبة الشديدة النمو ذات مخاطر اشد من مخاطر الصحراء الرملية والقفار الجرداء فالعفونات السمية الخبيثة القاتلة تكون دائماً كامنة في تلك الغياض المنعجة تتولد من بقايا النباتات والحيوانات وتنشرها حرارة الشمس وتعمل الرياح تنهبها الى اماكن بعيدة فتقتل من تصيبه والصعوبة ايضاً في اجتناب تلك النباتات الكثيفة الملتفة المعترضة في الطرق وفي اجتناب الغابات الظليلة الشديدة البرد ثم التعرض بعدها لحرارة القفار الشديدة التي تاتي بامراض قتالة . وقوة الرطوبة هناك ما لا يحظر على البال فانها تلتف كل جسم ترض الحديد وتسرع العفونة والفساد في الحطب والخشب وترخي جلد الحيوان المسلوخ حتى يصير هلامياً وتزع من البارود وهو في جوف البندقية قوة الانفجار والحضرة تفسد تحت مياه الامطار الرائدة . فالويل لمن يدهمه فصل المطر وهو في الطريق فقد يضطر ان يمشي في المياه والمنافع عدة اسايح والماء او الوحل الى ركبتيه ووسطه ايضاً كما حصل لليفنستون فدهمه الموت قبل استدراك المرض . وفي تلك الظروف تشتد الحبيات وتنشر الاوبئة فلا تبقي ولا تدر وقد تصل القافلة الى قرية فيخاف اهاليها العدوى ويطردونهم فترى جنثهم مشورة على طريقهم

وفوق هذه الضربات والمصائب توجد احوال اخرى ليست اقل اذى
فان تلك الاقطار الاستوائية تفيض بمحشرات قتالة يقضي منها المسافرون امرّ
العذابات . فعلى شواطئ تشاد وكينوريا وتشغانينا يكون اللعوض مخبئاً كالغيم
المنتشر فيمنع الدنو منها . وفي أماكن اخرى يوجد النمل الابيض الذي لا تدفع
هجماته قوة بشرية وتكلف كل ما يصادفه من طعام ولباس وادوات خيام
وبضائع ونحو ذلك

وفي افريقية الجنوبية ضربتان عظيمتان الجراد والذبابة المعروفة بالصيصى
فالجراد يجرد كل ارض يمر بها كما يفعل في اقطار السودان وجبال الاطلس .
فقد يصعب المسافر والجوّ صافٍ والريح راكدة فيرى في الافق غيمة كثيفة سوداء
مستديرة شاذلة مسافة عظيمة من الجوّ فتتقدّم شيئاً فشيئاً ثم يسمع منها صوتاً
كاللعل الخارج من خليفته لكن اشدّ كثيراً ثم تقترب فيرى الوقا وريبات من
افرادها تلعو وتسئل في تلك الغيمة المتملة . هذا هو رجل الجراد الهائل الذي
يفرّ امام اصناف من الطيور وهي لا تدعه حتى تلتفه او يتبدد وتخفي آثاره . فمبروره
في بلاد نمسي والارض مكسوة بالخضرة وتصبح والارض جرداء كأن لا عهد
للخضرة بها . واذا سقط على الارض يكون كبساط سمكة اربع اقدام وطوله ٧٥
كيلومتراً وعرضه بالنسبة . وانما سقوطه يكون بركود الريح فالويل للارض
التي يحل فيها . فتاتي جوارح الطير وكواسر الوحش والحيات المختلفة تلتهم من
تلك الوليمة الحافلة والناس ايضاً هناك تملأ سلالاً كثيرة من صغار الجراد
ويذخرونها مؤنة ويستمر مرور هذه الغيوم الكثيفة ساعات متوالية لا يمنعها
ماء ولا نار وقد تقطع الانهار الكبيرة على جسور معنودة من جثث الطوائف
المتقدمة بعد ان تهلك بالماء وتطفو على وجهه الى مسافة بعيدة . واذا عرضت
لها النار اطفأها بشدة تراكمها حتى تسد عنها منافذ الهواء

فاذا طلعت الشمس وحجبت اجنتها قامت كلها فحجبت الشمس واعادت
النهار ليلاً وحجف اجنتها بصم الاذان فتنتقل الى بقعة اخرى وتنفعل ما فعلت

بالاولى اي نصير اخصها اجديها

واما الذبابة المساة صيصى فتوجد على الطريق بين بلاد الراس وجنوبي زمير فتكون هذه الذبابة الضربة الالية للفاقة . والاثنال هناك تجل على الحمال وفي عجالات ضخمة يستخدمها الانكليز يضعون فيها الفراش والبضائع والصيد ويلفونها بجلود حتى لا يدخل العجالة شي ويحرق الواحدة نحو ثلاثين ثوراً ويصعب العجلات في غالب الاحوال رجال على الخيل فالذبابة المذكورة لا تعرض للانسان لكنهما توذي الخيل والبقر والابل فتاتي البهيمة وليس لها طين وتنفض عليها وتنشبت بها بخرطومها الناذ فتغرق الجلد وتصل الدم . فيجئنا الحيلان بامره ويدور ويظفر ويتمرغ ويشب من مكان الى آخر وهو يتلووى ويتقبض ثم يتلأشى ويسقط وقد سرى السم في بدنه وبعد هنيهة يموت

ووجود هذه الذبابة على مجاري المياه فللوقاية من اذيتها لا تشي الفاقة قرب الانهر ولا تورّد الحيوانات للشرب الا بعد الغياب لانها حينئذ تكون قد باتت وكنت اذاها . وتكثر في بعض النواحي حتى يحتاج الناس ان ينعولوا عن الطريق الى مسافة بعيدة جداً ويدورون من غير جهة حتى يرجعوا الى طريقهم

واذا فاز المسافر بالنجاة من كل هذه الاخطار فعليه ان ينتظر خطراً آخر وهو ررض عضال دوري يتانى عن كثرة مشقات الطريق والخاوف . الشدبة وتغيرات النصول وتقلبات احوال الجوى واختلاف الاراضي ونحو ذلك . فيرجع الى سلاه وقد امل الظفر واستقبل الراحة فني الطريق احبباً يصيبه هذا المرض وفي راحته يلقى شفاءه . وقل من نجا من الاوروبين برجوع سليم ونجا من هذه الاخطار نجاة تامة

فهذا كله حباً بالعلم ونشر المعارف الجديدة بين اهل المعارف فليعتبر الى البصائر

القسم الثاني

رحلات مفصلة

الباب الاول

رحلة روتى اريكور الفرنسي

الفصل الاول

تاجرى - بلاد عادل - صالح ملك شوى - مملكة شوى

في ٢٢ شباط سنة ١٨٢٩ خرج روتى من القاهرة الى السويس ليدخل البحر الاحمر ويبلغ الولايات الجنوبية من بلاد الحبشة ومن هناك يذهب تحت حماية احد ولايات البلاد الى مجاهل افريقية الداخلية . فركب البحر من السويس الى جدة ومنها الى مخاوها على ساحل بلاد العرب . ومن مخا مضى الى تاجرى وهي على الساحل الشرقي من افريقية . هذه هي الطريق التي اجنازها في ثلاثة اشهر وكان وصوله الى تاجرى في ٤ حزيران وهي مركز استعداد لل سفر الداخلي

وتاجرى قرية صغيرة في بلاد اكثرها قفر قاحل ساحلها رملي ايضا

قائمة عليه اكواخ القرية الواحد وراء الآخر . وفي وسط البلاد الجبال الشاخنة الصخرية عليها الآثار البركانية ممتدة من الجنوب الى الشمال وليس على سفوحها شيء اخضر . والبلاد بالاجمال خالية من الزرع والشجر الامندر

قال روثي وهذا يجزن نفس السائح ويضعف عزمه كأنه يرى من منظر هذه البلاد الكئيبة طليعة الاقطار العازم على دخولها ووائل الاخطار المزمعة ان تراكم عليه في الداخلية

وأدخل روثي على شيخ هذه القرية وإطاعه على قصده فالتزم ان يقيم فيها عدة اسابيع ووصفها وصفاً مدققاً . فقال عدد اكواخها نحو ٢٠٠ شكها اسطواني قائمة على اوتاد مغروسة في الرمل ومغطاة باغصان يابسة . واهلها مسلمون يتعاطون التجارة بالمناياضة بين جنوب الحبشة و بلاد العرب ويصنعون الفواقل ولم مهارة في الكسب لتعودهم منذ الصغر ركوب الاخطار ومواصلة التجار . وطعامهم الذرة واللبن . ويستعملون السعوط عوض التبغ ويلبسون جبة قطنية تحتها رداء يشدونه بمنطنة يعلقون بها سكيناً او خنجرأ ويرسلون شعرهم ويصفرونه وشعر النساء وافر جداً طويل يتجاوز الكشح ويلبسن درآعات من النطن . واصل هؤلاء النوم من قبيلة يقال لهم الدناقلة مواظهم بلاد عادل الى حضيفض جبال شوى وهم عشائر واسباط مختلفة

فلما خرج روثي من تاجررى استصعب واحداً من الدناقلة وواحداً من اهل القرية للتخفظ والاهتداء واخذ في طريق شوى فلم يصادف شيئاً يستوقف النظر لان الحر والفقولة سائدان في ساحل بلاد عادل الجبلي البركاني الاصل . والجبال كلها معتدلة الارتفاع متساوية التم ليس فيها ما يختلف به المنظر ونقيض الشمس نهارة حرارتها على تلك الهضاب والمفاوز فجعلها من كل عرق اخضر والمسافر لا يطبق شدة توهجها اذا كان غير متعود ركوب متونها

وكان شروع روثي في هذا السفر في اواخر فصل الشتاء فاتفق له مصادفة زوايع وامطار شديدة فتوقف عن المسير فقال في وصف ذلك « نتحدث

« كل يوم زوايح شديدة في اول الليل وتستمر ساعين فلا يستطيع المسافران
 « بتي المطر فنكت اخلع ثيابي والنهار واسترها جهدي حتى لا تبالي والجأ الى
 « بطون الصخور الشائخة وابت فيها طول الليل على جلد بقر اخذته من تاجري
 « وانعطى مجد آخر لا يلبث ان يتبل لوصول الامطار الي بعصف الرياح
 « وجري السيول حولي بعنف التي من ترشاش الهوان . فابقي ساعة او ساعين
 « متعذباً بهذا الحال ثم تنفث الغيوم ويصفو الجو وتبلى الكواكب ببهاها في القبة
 « الزرقاء وتكون برودة الليل في شدتها مقابلة لحرارة النهار الانوية »

وبعد ان تجاوز روشي قرية الكسيتانة راي بحيرة ملعة كبيرة محيطها نحو ٨٠
 كيلو متراً بكثرت بئر مائها ويزداد يوماً حتى كان الملح عليها طبقة تنشي عليها
 الجمال الى مسافة بعيدة من الشاطئ واهل البلاد ياخذون كميات وافرة من
 هذا الملح ويحملونه الى الجهات وهو اهم اصناف تجارتهم

وبعد ان اجتاز بلاد عادل وصل الى قرية تيانو وهي اول حدود مملكة
 شوى وقد اتفعل من ارض جرداء قاحلة الى اودية الحبشة النظرة الشجراء الكثيرة
 الخصب . قال اول ما قابلت القرية في راس هضبة خضراء تحف بها الاشجار
 رايت المنازل مجمعة بنظام لا تظهر الا سطوحها المخروطية من خلال الاشجار
 المتنفة ووراء هذه الهضبة سلسلة جبال معترضة من الجنوب الى الشمال
 موافقة من هضاب ترتفع مندرجة الى مسافة بعيدة وكلها مكسوة بالاشجار نهج
 الانظار وترتاح اليها النفوس

والاراضي التي دخلها آهلة عامرة كثيرة الزرع والبساتين سابعة الظلال حسنة
 الربيع قد ساعدت بها يد الانسان يد الطبيعة حتى فاضت خيراتها وعم نباتها
 فهناك الاشجار المثمرة والزرع المختلفة بين حنطة واطريفل وذرة وحمص وفول
 وكتان وقطن وقصب سكر يبلغ كبراً عجبياً . وعلى جوانب الطرقات العوسج
 والعائق المشبك وبين ذلك الياسمين والورد وغيرها من الازهار ومن الاشجار
 اللطيفة انواع السنط وشجرة النفل المشرقة الاغصان كانها مخروط منقلب

نخل ثمرًا احمر واصفر يكون عناقيد تحب الفلفل . واما الطيور الكثيرة
الاصناف الزاهية الالوان فيملا يدخل تحت المحصر تطرب الاسماع باختلاف
الحائنها وتسّر الابصار بيهاء الوانها

ولما دخل روشي مملكة شوى كان الملك فيها رجلاً يقال له صالح من سلالة
ملوك يزعمون انهم من نسل سليمان الحكيم . يكرم الغريب بحبّ التداخل مع
الاجانب ويحتشد في نشر التمدين في بلاده . وكان وقوراً مهيباً في عيون رعيته
واعغل ملك تولى سريراً في ارض الحبشة . قال روشي ان عمره كان ٤٥ سنة
وهو معتدل القوام حسن الهيئة لطيف الطبع ذهبت احدى عينيه على اثر رمد
حاد وشعره اسود كثيف مضمور بنظام يلبس جبة من قطن بيضاء مطرزة
بخطوط حمراء

وكان عند وصول روشي مقبلاً في انغولولو حاضرتة الجديدة فارسل اليه
رسولاً يدعوه اليه في الحال فدخل عليه في ٤ تشرين الاول مخفوقاً بالخواص
والحشم فوجده جالساً على سرير وحواله ثلثائة رجل بايديهم المشاغل قائمين
بوقار ونظام حسن . فسأل روشي عن مقاصده من هذه السياحة واستقصى
الخبر عن الفنون والصناعة في اوروبا ثم صرفه وقد رآه مضحكاً من التعجب
قال روشي دخلت الدار يتقدمني ثمانية رجال بالمشاغل فادخلوني بيتاً
فسيحاً يشبه البيت الذي فيه الملك ارضه مفروشة بالعشب الغض وفي جداريه
معلقة تروس مصنوعة من جلد فرس النهر ومزينة بالنفضة قطر الواحد ٣
اقدام وفي وسط البيت مائدة مصنوعة من اغصان الخلاف ارتفاعها قدمان
عليها خمسة صحون فيها الوان من اللحم وانا ان فيها غسل من اجود ما يكون
وسلة فيها موز تنشر منه رائحة ذكية وانا ان فيها الجلاب اي ماء الغسل
ووعاء فيه الخبز فدعيت الى الاكل فجلست واكلت ما تيسر فوجدت نابل
الطعام كثيراً جداً حتى احترق حلقى من حرارة الالبازير فاكثر من الغسل
والموز . ثم رايت في جانب البيت كائناً من حديد مطروق فيه الجهر يستخدم

الطبخ والاستدفاء

وكان الرجال الثمانية المشاعلية واقفين حول المائدة والمشمعل يصنع من قطعة نسج قطني مغسوة بذوب الشمع وملفوفة على نفسها حتى تصير في غلظ اليد فيكون نورها عظيماً جداً فكان البيت ملئاً بالانوار ولمعان الفضة التي على التروس فشعرت حينئذ بانسباط نفس وانسراح صدر وتجدد عزم وهمة نسبت بها المشقة التي قضيتها واسنسمات المضاعب التي ساوآدتها في رحلتي هذه لان راحة ساعة في مثل هذه الظروف وهذه البلاد الطيبة تنسي الانسان كل هم وتعب ويهون عليه ركوب الاخطار

وثاني يوم دعا الملك بروتى وجلس له جلسة طويلة سألها فيها بتفصيل عن صناعة الاسلحة والبارود والذباب المستعملة في اوروبا ونظام حكومة فرنسا ونحو ذلك . وقدم له روشى يضع سنادق ومطخنة البارود فانهج جداً وانعم عليه بمخيل كريمة وجماعة لخدمته وما عاد يفارقه ساعة

وبعد ايام بينما كان العلماء يشغلون بالخشب اللازم لمطخنة البارود خرج في صحبة الملك التجول في انحاء المملكة فرأى له قوة عسكرية عظيمة وكان يقوم بتدبير الامور احسن قيام وكل يوم مساء يصنع وليلة حافلة (ذلك في الايام التي كان بها يتاهب للرحيل) فتوضع الاطعمة على مائتين كبيرتين من اغصان الخلاف توضعان في بيت كبير وتجعل عليها سبعة اوعية ضخمة مملوءة باللوان من اللحم . ومعها كميات كبيرة من خبز الملة بعضه من دقيق الحنطة وبعضه من دقيق حب الاطريفل ترصف بين القصاع كالاساطين وفي بعض القصاع قطع كبيرة من لحم البقر معها مرق فاتر يتبل بدقيق الفلفل وفي بعضها شرائح او بضع من لحم الغنم معلنة بعظمها عدة شرائح في عظمة واحدة ودقيق الفلفل مذكور عليها كلها بكثرة وكل هذه اللحوم غير نامة الضع وقد تكون عوضاً عنها بضع كبيرة من لحم البقر نيئة وهم يستطيون اللحم التي يذرون عليه دقيق الفلفل فقط . ولكثرة اكلم هذا اللحم تولد فيهم الدودة الوحيدة المشهورة عندهم

ويدفعونها باكل نبت يعرف بالشاو وهو الحشيشة الحشوية استجلبها من هناك
 روتى فكان لها فعل جليل وشهرة لا تنكر في بلادنا . والشراب الفاخر عندهم
 هو الجلاب ليس ماء الزبيب كما يصنع الآن عندنا بل ماء العسل الجيد يسكبونه
 على مائدة الملك في بواقيل زجاجية يسمونها بريلة

ويجلس المدعوون على العشب المفروشة به الأرض وجواري الملك محصرن
 الاطعمة فيتناولها الرجال ويقدمونها على المائدة . واما الملك فلا يواكل المدعوين
 لسوء منزلته بل يجلس على سريريه وحوله الضباط ويقعد مجلس هو وطرب
 ويسر بمجلاة ظرفائه والمطربون يشتغلون بالآلاتهم وهي الطنبور والشابة او
 نحوها فتخرج المخانم بجملة عظيمة واختلاط قبيح

وفي ٢٢ تشرين الاول مشى الملك في مقدمة عسكره وقد اظهر من
 الابهة والخففة ما لا مزيد عليه فتقدموا الى جبال مجيرة مارين ببلاد جالة .
 وفي ٣٠ منه وصلوا الى النيل الازرق فاندثرت روتى عندما رآه لكثرة ما
 يذكر عنه من الاخبار المؤثرة

واما جالة من اجل ام افريقية حسان البنية طوال القامة جبينهم عال
 عريض انهم مائل فهم لطيف لونهم نحاسي شعرهم مضفور ضفائر صغيرة
 مسترسلة حول الراس هيئتهم تدل على الشهامة واللفظ يتعودون ركوب
 الخيل منذ حداثتهم وحمل الرمح والفرس فهم فرسان حاذقون اشداء على
 المشقات اصحاب بسالة واقدام في الحروب ويتعاطون الزراعة مهمة ونشاط
 ولباقة وعليهم زعيم ذوباس وتديير ولكنهم وحسن تدابيرهم لا تقوم في وجههم
 امة بافريقية ولا اكثر ولنسائهم جمال كساء عادل ولبس كازياهم نفرياً
 واما مذهبه فليس كالوثنيين ولا الموحدين تماماً فيعتقدون بآه واحد لكن
 لا يعبدونه عبادة ظاهرة والخرافات عندهم كثيرة وقد اقتبسوا من النصارى
 جيرانهم بعض عوائد منها احترام يوم الاحد فيجمعون فيه لايصلوا الى الله ان
 ينهم مواسم جيدة ويجمعون ضام من الزروع ويتأبطونها ياخذون قضيباً

طوله ذراع يسك الرجل باحد طرفيه والمرأة بالآخر ويرقص كلاهما دائرين حول شجرة خاصة وهم يقولون اللهم اجعل زرعنا خصباً واحفظنا واحفظ ارزاقنا ومواسينا . وهلم جراً . ونارة يرفعون الفضياب فوق رؤوسهم وطوراً يخفضونها ثم يسجدون وينضون ويغنون ويكررون الصلاة المذكورة الى مضي نصف ساعة ثم يقدمون ذبائح من الغنم

واذا ارادوا طلب معونة الله في الحرب فالصلاة قلما تتغير واما الرقص فيختلف فتصطف النساء حلقة حول الشجرة المقدسة عندهم ولا تمسك الواحدة يد الاخرى ولا شيئاً آخر بينهما ثم ياتي الرجال على الخيل بسلاحهم ويترجلون وياخذون الرماح والتروس ويصطفون حلقة وراء النساء فتبتدي واحدة بالرقص بان تضم رجلها وتضع يديها على حنوبها وتواصل الرقص وثباتاً على رجلها بجدة وخفة ويفعل فعلها الرجل الذي يكون خلفها ثم كل واحد من الجماعة يفعلون ذلك مناوبة واخيراً ياخذ بعضهم بايدي البعض ويرقصون دوراً نهائياً دائرين حول الشجرة وهم يستغيثون بمعونة الله وبعد ذلك يذبحون ثوراً وياكلونه ويركبون ويمضون الى الحرب راساً

وفي ٢ تشرين الثاني وقف الركب عند دير يقال له روى ليبانوس وفيه ضريح لراهب مشهور عندهم يجتمعون وبزورونه وموقع الدير جميل جداً تجري عنده ساقية يقال ان لها احوالاً عجيبه . وبعد بضع ساعات من الراحة اتم الملك سيره الى انغولولو فدخل دخلة جالية وفي ١٨ منه سافر وبصحبته روتى الى انكور العاصمة القديمة للملكة شوى . وهي واقعة في السند الشرقي من سلسلة جبال بركانية الاصل وتشتمل على عدة بيوت متفرقة بعضها عن بعض وحول كل بيت جنيته مسيحة سباح حي من العوسج ونحوه وسطوح البيوت على شكل مخروطي ترتفع بين الاشجار الغضة بتدرج سلمي يسهج النظر . وعدد سكانها كان نحو عشرة آلاف

ومنازل الملك قائمة على اكمة مخروطية تشرف على الجبل وحولها خمايل

نضرة مرتبة ترتيباً حسناً ومن راس الآلة يشرف الناظر على حرش تحت القرية
اشجاره ارز وشرين مرتفعة في السحاب ارتفاعاً عظيماً وهناك اصناف الطيور
المعددة بكثرة عجيبة تحي بها تلك البقعة ويلقى معها الانسان في حر النهار ظلاً
سابقاً ورطوبة تنعش القلب

ومن جهة الشرق يمتد النظر الى مسافة نحو ٢ كيلومتراً على بلاد متوجة
السطح عجيبة الخصب لا يقع النظر فيها الا على الحضرة النضرة المدججة بالوان
قوس السحاب

ولما راق لروشى المقام في انكوب اخذ يتاهب لعل السكر لانه كان قد
وعد الملك بذلك فامر الملك باستحضار كل ما يطلبه من الادوات

قال فطلبت جماعة من الخزافين وسالته ان يصنعوا لي عشرين قالبا
وفي ٢٠ منه اخبرني الملك انه ارسل جماعة يتلعون النبي عود من قصب السكر
وكان فرحاً جداً بان السكر سيبصنع في بلاده . فسألته ان يحضر لي خمسين
شأباً لاستخدمهم في العمل حين وصول عيدان النصب فقال انه يحب هو نفسه
ان يشتغل ايضاً وينف على كل حركة اعمالها في اثناء الشغل وان يكون العمل
في احد يوتي

ثم اتى بالنصب فكان اجود نوع رائته في مصر وغيرها لم ار اعظم ولا
اغلظ منه ولا اكثر ماء ولا احلى طمأ فامرت بسلخ ليطو (اي قشره) وان يقطع
قطعا صغيرة ويهرس في هلاوين من خشب ثم يوضع الحاصل في قطعة كبيرة
من الخام ويعصر ثم اشتغلت باغلاء العصور وصفينته بلحفة من صوف ثم صعدت
ماء حتى صار في الدرجة المناسبة من التخنر فسكنته في التوالب حتى يتبلور .
وهذه العمليات اقتضت يومين وكان الملك يشتغل معنا بيده وكثير من خواصه
اشتغلوا ايضاً . وبعد ايام اخرجت السكر من قواليه وقدمته للملك فطرب
طرباً غريباً ونجيباً عجيباً شديداً من صناعتي

وعمل روشى للملك غير ذلك من الاعمال النافعة في الصناعة وغيرها

حتى المَحَّ عليه ان يبقى في مملكته وانه بوليهِ احدى الولايات . فابى واقام عندهُ
بضعة اشهر شهد في اثنتائها صيد الفرد و حرب الحبشة والجمالة ثم رجع الى اوربا
عن طريق تاجرى وزيلع

واذ كانت هذه الرحلة قصيرة غير مستوفية الاخبار اقتضي ان يرسل
رحلة اخرى فيها بعض التفاصيل كما سيأتي في الفصل الثاني من هذا الباب
وعند رجوعه اصحبه الملك صالح برسالة الى الملك لويس فيليب هذه
ترجمتها عن الاصل الفرنسي

من النجاشي صالح ملك شوى الى لويس فيليب ملك الفرنسيين
اكتب اليكم كتابي هذا بعد ان سمعت روشي يذكر عظمتكم فسار اليكم
قلبي طالباً صداقتكم ومن العادة ان الهدايا بين الاصحاب المتباعدين اول وسائل
المواصلة ولذلك ارسل اليكم بعض اشياء من محاصيل بلادي وهي ترس وسيف
وخاتم فضة واسوار حربي وخلافاً وجاد غر اسود وجاد لبوة ورمحان وفرس
وكتابان اسم احدهما سنكسار والاخر فتح النجاشي . واست احسب هذه الاشياء
لائقة بعظمتكم ولكنها اشياء اثرية للتفرج

لا اقدر ان ابادلكم الوداد الذي يتحصل من النظر والكلام فاكتفي ان
اودكم بالكتابة لاني لا استطيع ان اراكم الا بالحبر والورق ولا اكلمكم الا بلسان
روشي فقد فوضت الي ان يشافهمكم بافكاره وارجو ان تسخروا بعوده الي وان
تقولوا له عند رجوعه ماذا تحبون ان ارسل لكم من بلادي مما لا يوجد في بلادكم
فاني سابادر حالاً الى مصيحتكم واعيد اليكم روشي بالسلامة

وبركة ربنا الاب ومخلصنا الان تكون معكم امين النجاشي صالح

الفصل الثاني

رجوع روشى الى مملكة شوى

لما دخل روشى بلاده لقبه الملك لويس لئلا جيلًا واحتفلت بقدومه جمعية العلوم وهناك بسلامته وكان الملك صالح قد ابح عليه بالعود واعداً اياه احسن المواعيد . فاغترى بمثل هذه الاسباب واطمئنته نفسه بان يرحل رحلة ثانية يكتسب بها شهرة وعظمة اكثر مما حصل عليه

فخرج من مرسيليا في اول كانون الثاني سنة ١٨٤٢ اوبلغ الاسكندرية في ١٥ منه والقاهرة في ٤ شباط ومضى منها الى القصر عن طريق قنا

وركب البحر الاحمر الى جدة ثم الى مخايم ذهب بخرًا الى تاجررى وكان الانكليز في تلك الجهات مشددين على السابلة الاجنبية فاضطرا ان ينكص راجعًا في طريقه الى مخا فثار على سفينته نوء شديد قال في وصفه ما ياتي

حينما بلغنا منتصف الطريق بين تاجررى ومضيق باب المندب عصفت رياح شديدة وحدث نوء لم اعهد له نظيراً في سابق حياتي واخذت الامواج تتقاذف سفينتنا الخسيسة والتيارات تنفخ امامها هاوية بعد هاوية وترفعها نارة الى علو عظيم ثم تهبط وقد ظننا ان الله انزلتنا . واشتدت الرعود وسقطت صاعقة على مقربة منا فشتت البحر كحبة من نار وظهر على اثرها لهيب ازرق واخضر وانتشرت في الجوارح كبريتية كدنا فخلق بتنفسها

ثم اشتد عنف التيارات وعصف الرياح وجرت من السفينة اشياء ثميلة
وتزقت الفلوع وغرق احد الدناقلة . وصار الجرية يصيحون ويستغيثون وقد
اذهلم الحال ووقفوا حيارى من شدة الهول . واما انا والرئيس فبقينا متجلدين
متبصرين وجعلنا نضرب الجرية حتى ينتبهوا الى اعمالهم ويخرجوا من خولم . ثم
تمكنا من اصلاح الفلوع وقال لي الرئيس ان الصواب لو خاطرنا بالنفوس
والاموال ان نتقدم الى ما بين الصخور على ساحل افريقية ولما صار النهار
قريب الانصرام راينا صخوراً مخيفة كانت السفينة تدنو منها بسرعة فندم الرئيس
على ما فعل ولم نعد نستطيع العود فراينا الخطر جسيماً واصابتنا الشدة كائننا راينا
الموت باعيننا غير ان الياس احى بنا الهممة وجدد نشاط الجرية فاتوا بشناكل
قوية وربطوها بحبال متينة مربوطة بالسفينة واخذ الشناكل ثالثة من اسل
الجرية ووقفوا على المقدم فلما قربت السفينة من الصخر الاول التوا انفسهم في
المجرؤندموا الى الصخورهم يقاومون عنف الامواج الراخرة فبلغوا الصخر وعلقوا
به الشناكل تعليقاً شديداً فوقفت السفينة وحصلت في الامان ولولا ذلك لخطمت
بالصخور القريبة الوصول اليها (يقال ان بحرية البحر الاحمر من العرب
مشهورون منذ القدم باقتحام احوال البحر والتصر في شدائده)

وثاني يوم ركذ البحر وبعد يومين بلغوا محاضطر روثن ان يمكث فيها
مدة طويلة حتى اتفق له حادث استطاع بواسطته ان يدخل بلاد الحبشة في
وقت اقرب ما كان يرجو . فان احد اهل امبابو وهي قرية مجاورة لتاجرى
كان مصاباً بفرحة تعرف بفرحة الين وكان قد بلغه ان روتى طبيب وشفى
جماعة من اصبيوا بهذه الفرحة . فاتي اليه وطالب ان يشفيه

وهذه الفرحة على ما ذكر الطبيب بتي الفرنسوي عبارة عن آفة غنغرينية
تصيب السودان والعرب ونحوهم ولا تصيب الاوروبيين وذلك على ريف
البحر الاحمر من حد عدن الى بنبع . تبديء ببثرة صغيرة تحدث من خدش
او جرح وغالباً في الساق وبعد ثلاثة ايام تلتهم وتورم وتكون في وسطها نقطة

ظاهرة ثم تحدث دائرة النهاية حول الالتهاب الاول ويكون في الوسط غور قليل . ثم تنظف الفرحة ويصير مكانها احمر وبعد خمسة او ستة ايام تتعاطم حتى تصير كراحة اليد ويحدث معها غور بين فتصيب العضلات وترتفع حافتها وتنقلب فيشعر المصاب بالآلام شديدة ولا يستقر من شدة الوجع ويتسوس العظم وينكشف وتخرج منه شظايا وينتهي الحال بموت العليل

ووعده روتى العليل انه يعالجه على ان ييسره في قريته منزلاً يامن به الى ان يرد عليه جواب الرسائل التي ارسلها الى الملك صالح قبل ان يارج ناجرى املاً ان يسهل وصوله اليه . فاجابه الرجل الى ما طلب وبعد ان شفي وفي بوعده في ١٦ ايلول دخل روتى امبايو وهناك وصله كتابان احدهما من الملك صالح والآخر من الملكة يذكران فيها تسهيل السبيل للوصول الى بلاطهما ويتوددان اليه كثيراً ورسالة اخرى باسم والي ناجرى فيه اشد الوعيد اذا لم يبلغ روتى المرام من اجتناب البلاد او اذا مس بضرر

ففيهذه التسهيلات يسر لروتى الخروج من امبايو في ٢٥ ايلول بعد ان اجتمعت والد العليل الذي شناه ان يبقيه ضيقاً مكرماً عنده وارسل معه جماله تحمل اتماله لكن باجرة فاحشة . والطريق التي سلكها هذه المرة في بلاد عادل نفس التي سلكها اولاً تقريباً فانه مر بها بالبحيرة وانتهى الى ديمالي وهي من اول القرى في حدود بلاد شوى

واخبر مع ذلك انه في اثناء الطريق حدثت حادثة تستحق الذكر وهي ان الماجور هري الانكاييري كان معه جماعة اقصد بلاد شوى فقتل وادباً يقال له وادي حنجنما ولم يجتز على نفسه لتوقي هجمة اللصوص لبلاداً وكان قد ربط الخيل في وسط الوادي واقام حرسه الاوروي في جهة السفح الشمالي والضباط في جهة الحضبض الجنوبي فضت عليهم اول ليلة لم يصادفوا شيئاً واما في الليلة الثانية فقتل نصف الليل بساعة عصفت ريح شديدة واثارت في الوادي سحباً من الغبار ثم سقط قليل من المطر قطرات كباراً وفي وقت قصير

ركدت الرمح وصفا الجوّ وطلع القمر . وفي الساعة الثانية بعد نصف الليل
سمعوا صراخاً مزعجاً علموا انه صراخ مستغيث لطف فهبّ الساس واخذوا
بنادقهم ومشى هري مع جماعة من جنوده الى مكان الصوت فوجدوا رجلين
يتشيطان بدمهما ويحاجيهما رجل يرتو غالي من التمتع بمقور البطن مندلق
الامعاء

وكانوا ند راوا عند سماع الصوت شعبين راكضين في بطن الوادي واخذوا
بين شعاب الجبل فاراد الدناقلة اصحاب هري ان يلاحقوها فلم يهتدوا الى
مخبأها في تلك الكهوف وشنوق الصغور

فضن الجماعة ان هذا العمل لم يكن على سبيل السرقة لكن على سبيل الافتخار
بالتنبل لان من عادة اهل عادل ان الذي يتنبل رجلاً ينال فخراً ومجداً في
قومه ويعدّ من الاعمال ويكون له حتى ان يعلّق شعره المدهون بالشتم ريشة
نعام بيضاء وان يجعل في زنده اسواراً من نحاس وان يزين سلاحه بشيء من
الفضة . فهذه الامتيازات النادرة عندهم هي التي سهلت لذبك الفظيل ارتكاب
هذه الجريمة عمداً

وذكر حادثة اخرى تستلقت الانتشار ايضاً لما فيها من التأثير قال
كان من جملة النساء التابعات للتنافلة فتاة اسمها نفيسة آتية مع اخيها الى بلاد
شوى لتتزوج رجل من الدناقلة كان قد خطبها . ومن العادة عند اهل
عادل ان يتعول نساءهم شيء من الحرية لكن ينرضون عليهم القيام بالاعمال
الشاقة . وكان اخو نفيسة قد وكل اخيه بقيادة بعيرين من اضعف جماله
فعانت بهما تعباً شديداً حتى رقق لها قايي وكنت ابادر لمساعدتها في اكثر
الاقوات . في ذات يوم كنت في موخرة القوم حيث كانت نفيسة قد خلنا وادياً
صعب المسلك جداً في الطريق بين عمر غلوف وكبلالون فسنط احد
البعيرين عياءً فالتيمت بندقيتي وتقدمت فانهمصته معها وثاني يوم حدث له ما
ذكر فاردت ان اعينها ايضاً فظنرت اليّ نظرة الغضوب وقالت لاتدن فانفت

عَيُون (اي تصيب بالعين) وقد اصببت بعيري فما باليت وتقدمت فانهمضت
 النجل فقالت حين تقدمت «يَهْ يَهْ دَيُّو دَيُّو الفرنجي» اي عجباً ما اوقع هذا
 الفرنجي . وهو الذي يمنع بعيري من المسير . فاخذت احاول اقناعها ان هذا
 الاعتقاد خرافة لا معنى فيها ولم اقدر على ذلك الا بعد ايام واخيراً عرفت ان
 قصدي تخفيف تعبها لا زيادته فقالت ارى ان لك سلطاناً حتى على الحيوانات
 اذ لمست مخيفاً كما يعتد اهل بلادنا . فشرحت لها بطل الخرافات وصدق الانسانية
 فأست لي من ذلك الوقت فقدمت لها شيئاً من الخبز ففرحت بذلك
 واخبرت رفيقاتها فمستدنها . واتخذتني حينئذ صديقاً

وبعد ان اجتزنا عواش رايت البعير قد سبط لا يستطيع نهوضاً اشد
 الاعياء فانيت حسب العادة لانهمضة فتالت دع هذا العناء فسأصل أخيراً او
 يقضي علي في الثفر فصرت اسلمها والطف مصيبتها فقالت اراك رجلاً صاحب
 قدرة ولطف وباحذا لو كنت تزوجني فصير عائله واحده واخي شجاع مثلك
 فلا يندر احد علينا فضحكك في نسي من هذا العرض الغريب وقلت ما
 احسن ما اكون زوجاً لذات الجمال الاسود . ثم قلت لها لا صرفها عن محاورتي
 سلي اخاك هل يرتضي ان تركي خطيبك . وفي يقيني انه لا يسمع لان هذه
 العادة عندهم ان لا تعطى امرأة لغير خطيبها . فكان كذلك وحزمت نفيسة
 وناسفت كثيراً وقالت عندما افترقنا اني ساتزوج نعم لكن تخفق اني لا انساك
 مدي حياتي

ولما دخل روثنى بلاد شوي كان الملك صالح في انغولولا ينتظره
 بفروغ صبر فاسرع ودخل عليه فالتناه شوق شديد . وكان لا يسأ حله
 الرسمية وجالسا على سرير مغلى بمخمل قرمزي فمد يده الي روثنى باثنا فاعنته
 غير مبال بعادة البلاد فصار يسأله عن سفرته وعن الهدية التي اناه بها ثم راي
 انه يحتاج الى الراحة فاذن له بالانصراف لياكل وينام
 وثاني يوم جلس له جلسة طويلة وسأله ايضا اسئلة كثيرة فاخبره

روشى بكل ما اراد فعقد مجلساً حافلاً ثالث يوم اجتمع فيه الخواص ليقيم امة
روشى الهدايا النفيسة التي اناه بها من فرنسا

قال وكنت قد احضرت هذه التحف ورتبتها على نظام احسب انه يدهش
النظار باظهار شيء وراء شيء فابتدأت بالسلاح الضخم واول ما اظهرت مئة
بندقية ثم خمسين طنبجة وثمانى قرابينات ومئة غدارة وخمسين سيفاً للفرسان
 وخمسين المشاة . ثم قدمت شفتاً من الجوخ الاحمر وطنافس من صوف وشفتاً
 من الحرير ملونة ومنفوشة . وقدمت الملك خاصة لانه مولع بالصيد بندقية مزدوجة
 كثيرة الثمن مزينة بنفوش ذهبية ارسلها اليه الملك لويس فيليب . ثم اريته كثيراً
 من الخوذ والدروع المختلفة وهي تلعب كالفضة فحالاً امرني ان اجرّبها عليه
 فانهمج جداً بمظرها . وهم لا يعرفونها هناك

ثم احضرت مدفعين وقدمتهما له وكان عنده مدفعان قدمهما سابقاً جماعة
 من الانكليز ولم يكن يستعمل المدافع في الحرب لكن كان يستعمل ويتفخر بصوتها
 في الاعياد والاحتفالات الخاصة فسألني ان اطلق المدفعين ليرى الفرق بين
 صوتها وصوت اللذين عنده فقلت له نترك هذا العمل الى وقت آخر اكثر
 مناسبة . ثم الهيت عن ذلك باشياء اخرى فامرت باحضار اربعة صناديق
 كانت في منزلي فلما رآها حركته رغبته شديداً حتى يعلم ما فيها فاخذت
 افتحها واحداً فواحداً واظهر له منها الغرائب

فاخرجت اولاً آلة موسيقية ذات صندوق واساطير وزنار تديرها
 فنضرب ثلاثين نغمة فلما رآها تعجب واراد ان يعرف ما هي فادخلت اسطوانة في
 الصندوق فتقدم وصار يتفرس ليفف على سرّها وهو لا يستقر من قلّة صبره
 وابا اركبها على منقضى الاحكام فلما احكمت التركيب سألته ان يصغى هو وسائر
 من في المجلس ثم ادرت الدولاب فتحرّكت الآلة ودارت الاسطوانة ورنّت
 الحانها المطرنة . فما اقدر ان اصف الهيئة التي حدثت على اوجه الحاضرين
 والحركات الاشارية التي ظهرت منهم عند الوقوف على هذه الغرابة . وهم الملك

مرات ان يسألني عن هذا السرّ العجيب لكن ادعته الانحان عن قطع هذه اللذة العظيمة . فلما انتهى اللحن الاول اوقفت الآلة لاجعل تشويقاً لما يلي وحينئذ فاضت عليّ السوالات كالطمر المنهر ففتحت الصندوق وصرت اشرح لهم كيفية العمل بهذه الآلة

فطرب الملك اشد الطرب واظهر لي بالف دليل تشكراته القلبية لافضل ملك فرنسا الذي اتخذه بهذه التحفة السنية فاتخذت تلك الفرصة لكي اريه هدية اخرى اكثر اعتباراً واشدّ عجباً من هذه فقلت له الذي رايته كله من صنعة بلادنا لكن ملكنا اراد ان يجعل العلاقة الحية الصريحة بيننا فارسل اليك ما هو الفخر واثن ما رايت . ثم اخرجت له من صندوق صورة الملك بالزيت فلما وقع نظره عليها اخذه الاندهال لان الصور الضخمة الموجودة في كنائس الحبشة لم تظهر له شيئاً من دقائق هذا الفن اللطيف . فكان يرى الصورة المذكورة كأنها شخص مجسم يكاد ينطق فجهد متعباً ثم صار يمد يده اليها لعله يمس جسماً من لحم ودم فلا تصيب الا دهاناً مبسطاً فيزداد تحيرة كالولد الذي يمد يده الى بركة ماء ليمسك خياله المنعكس . ثم صار يثاقب الصورة وينظر الى قناتها لعله يدرك مصدر هذا السر ويحسها من الامام والوراء وهو لا يهندي الا الى الاندهاش وتلك الافكار والارتباب

فقلت له اخيراً ان كثرة اللبس توذي الصورة وتنقص رونقها وهذا الذي تراه ليس الا دهاناً على نسج ناعم رونقه وثقله للملك من دقة الصناعة . فسمع حينئذ لخواصه ان يترجوا عليها وامرهم ان لا يمسه احد بيده وبعد ان فرغوا ارسلها الى الملكة واصاها بنفس الوصية وفي نصف ساعة ارجعت الى المجلس فوضعها على سريره وجعل يتأمل فيها وقال حقاً ان هذه التحفة افخر التحف التي ارسلها اليّ ملككم وهي ما يزيد عدي اعتباراً وحباً فكافي اراه واحده . فقلت له الآن يوافق اطلاق المدافع اكراماً لملكنا . فاجاب في الحال وقنا فاطمنا طنين لم يكن لها صوت غريب ثم امرت بتكثير كمية الحشو فلما اطلق المدفع كان له

انفجار عظيم فدهش الملك وامر بابطال الاطلاق

وعند انقضاء المجلس طلب روثي ان يقابل الملكة فاذن له الملك
فدخل وسلم عليها سلام الجلال فاجلت منامه ولاطفته كثيراً فقدم لها نائس
الحلل الحريرية فاخترت الساذجة منها ولم تكن ثياب المنقوشة

وفي آخر النهار اولم الملك وليمة فاخرة على ما وُصف آنفاً. وافترق لروثي
ان يقابل هناك الوفد الانكليزي تحت امره هري المار ذكره وكان القصد
من رحلتهم الوقوف على احوال البلاد والتجارة لان انكثرا كانت منذ مدة موجهة
انظارها الى بلاد الحبشة ولذلك كان ارباب الدولة والملك والملكة لا يكرمون
نزلاءهم فسافر هري برفاقه غير شاكرين

وفي تلك الاثناء شكى الملك حذاراً فاستوصف روثي فوصف له انترك
بدنه انتى فرس الهر وهي عادة جارية في بعض اقطار افريقية . وكانت غاية
روثي في هذه المسألة لامداواة الملك فقط بل الحصول على هذا الحيوان ليرسله
الى مجمع الآثار في باريس

فاصبه الملك بجماعة من المحربين في اصيد تمضي بهم الى نهر شيابيا لكثرة
فرس الماء هناك فاجتاز بصقع يعد اخصب واندر صنع في بلاد الحبشة وهذا
الصقع يشقه النهر المذكور فيكسبه رونقاً خاصاً فصلاً عن كثرة النباتات والاشجار
واصنافها المتعددة . فان النهر يجري اولاً الى جهة الشمال الغربي ثم ينحرف
غرباً ويقع في النيل الازرق . ومن عند قرية شيابيا الى جبل موجير ينحدر
بسرعة في وادٍ عجيب العمق يشق هضبة تتوى شتاً قائماً غريب المنظر وعلى مسافة
٤ كيلومترات من انغولولو قبل ان ينصب في هذه التجو العظيمة يكون ارتفاع
مجره عن سطح البحر ٢٧٠٠ متر وبعد مسيره ٤٨ كيلومتراً نحو الشمال الغربي
يصل الى جوت فيكون ارتفاعه هناك نحو ١٤٠٠ متر فيكون تحدده من وهدة
الى وهدة على التدرج سريعاً عتيماً ولاسيما في زمن فيض الامطار . فتضارة
البلاد على ضفتيه من اعظم ما يكون وتكثر القروء في تلك الغياض المشتبكة

والطرق في سفح الجبل الى مجرى النهر مستوعرة جدًا ضيقة وحولها وهاد ينشعر
البدن من النظر اليها فلا تسلك تلك الشعاب الا بغال الحبشة الممعدودة
فلما شرعوا بصيد فرس الماء كان رفاق روشي يرمونها بالحرايب كما تطعن
الحشب لصفافه جاودها واما روشي فكان يطلق الرصاص في ادمعتها فتيسر له
قتل انثى كانت قد ولدت منذ عهد قريب . ثم قتل غيرها ايضا ولم يوفق الى
اثناء مطلوبه . فبعد العناء الشديد عاد خائفا الى انغولولو فلم يلبث اياما قليلة
حتى وصافته رسائل ملأت قلبه فرحاً

وذلك ان اثنين من السباح الفرنسيين كانا في رحلة علمية الى بلاد الحبشة
وقصدا الجولان في مملكة شوى فأوقفنا على نخوم حمزة فارسلنا الى روشي
يطلبان مساعدة الملك لانهم سنفهم روشي الفضية على الملك وكان
حينئذ يتأهب لغزو بلاد الجالة فارسل الاوامر المشددة بايصالها اليه ولم تضر
الا ايام قلائل حتى اجتمع الاصحاب

واما الجالة هذه اشرنا الى شيء من احوالها في الرحلة الاولى لروشي وانها
متاخمة لكل ارض الحبشة من الجنوب وانها ذات شدة وبطش وحسن صورة
بينها وبين الامهرية مشابهة من عدة اوجه الا انها ليس لها تمدنهم . والفتن
بين الفريقين متواصلة ومن عادة ملوك شوى اكتساح بلاد الجالة كل سنة
فتيسر لهم لما بين قبائلها من الانشقاق ان يبقوهم في رتبة الطاعة واذلال النفس
فشهد روشي وصاحبه هذه الغزاة التي قام بها الملك صالح وراوا من كثرة
العساكر وحسن نظامها ما اعجبوا به وكانت القبائل تنضم الى العسكر في اثناء
الطريق من كل بلد يصلون اليها بين فرسان ومشاة الى ان بلغوا معبد
الاجتماع الاول فبلغ عدد الفرسان نحو ثلاثين الفا كلهم بالرمح والسيوف
وتروس الجمل يموجون في تلك السهول كبحر متلاطم وبريق اسنهم ولعاف
سيوفهم ما يبهر الانظار والجيش متبكة كانوا رجل من الجراد يزدهم بعضه
ببعض والجلدة وقعقة السلاح وصهيل الخيل نلأ الجو والغبار مضروب فوقهم

سرادقات واقبل الملك على فرس من جياد الخيل مزخرف العدة ووقف في مقدمة الفرسان بابهة وجلال . وعلى جانبيه رجلان بمجلان مظلة من الخيل الفرمزي في اعلاها صليب وتفاحة فضة ووراءه الساسة بالتروس المزينة بالفضة وعشرة من الكهنة ونساء يقمن بخدمة مائدة الملك ومغنون ومغنيات واللات موسيقية واربعون رجلاً يصرون النغارات . وقدم الملك على بعد ثلثمائة قدم مهر يحمل سلة مغطاة بالجوخ الاحمر فيها الكتب المقدسة وحوله جماعة معهم السنادق بحرسونه اتخذوا ذلك مثلاً لثانوت العهد حين كان يسير امام الاسرائيليين في الحروب

فاجتمعت العساكر كلها في محلة فيني فيني في ٢٤ اذار سنة ١٨٤٢ . فكان عدد الفرسان ٤٥ الفاً وزحفوا على بلاد الجبال . فرأى المساكين انهم لا يستطيعون القيام في اوجه عساكر كالرمال كاملة السلاح متفنة الضام . فلجأوا الى جيرانهم تاركين نساءهم واولادهم وشيوخهم وبهائم فوجدها الحبشة في سهل تاجي ونري غنية ماردة لا تقدر لها قيمة . فاوقف الملك عساكره اولاً ثم بعد ساعة قال لهم كرموا والنصر من الله فانقض الجيش كالسيل المتدفق او كالذئاب الكاسرة قال روشي فاقشعر بدني من فواحش هؤلاء الوحوش وفضائهم وما كنت انا لي لو كانوا بحاربون رجالاً لكن يذلون شراستهم في من لا قوة لهم ولا دفاع فضاق صدري وما عدت استطيع صبراً على فعالهم القبيحة فاجتمعت الجمعية لعلي اخاص بعض الانس البرية والمخلوقات الظاهرة . فرايت والله يعلم شدة ناتري شيوخاً مقطعة مهشمة ونساء مطروحة بجانب اطفالها الرضع المذبوحين وجثثاً واشلاء لا يقع عليها النظر ما لم يرتعد الدن ملطخة بالدماء معفرة بالتراب منقطعة مهشمة . اطراف مقطوعة وروؤوس مدحرجة وبطون منثورة وصدور مشنقة وهلم جرا . ثم رايت فارسين منفضين كالنازي على امراء وهي تنهب الارض ركضاً وتستغيث فسالمت سيفي واندفعت لخدمتهما فلم يدركها الفارسان حتى كنت قد وصلت وشارت اليهما ان يرجعا عنها فهز احداهما رمحاً وصوبه الي فضر به

بالسيف صمخاً على وجهه فطاش من شدة الضربة ونكص فهرب رفيقه ثم لحق به . وتقدمت الى المرأة فجمت على ركبتيها ومدت اليّ يديها متوسلة ودموعها تجري فاومأت اليها اني اتيك لانتدائها من يد عدوها واذا بجدي قد اقبلوا فرجلت احدهم عن دابته واركبها وهي في ذهول ما اصابها

وعمل روتى عدة اعمال مثل هذه وكاد اصحاب الملك يفتنونه لو لم يظهر بسائلته وغرضه بأسر جماعة من اعداء الملك حتى ارتفعت مكانته عنده اضعافاً ولما عاد الجيش الى المعسكر حدثت منهم عدة حوادث فظيعة من ذلك ما قال اني سمعت مرة صوت اطلاق بنادق من مكان غير قريب فمضيت لاعلم ما الخبر فعلمت ان جماعة من الامهرية اطلقوا بنادقهم على قوم من الجالة مخبئين في الاشجار فنصدت المكان فاذا هو حضيض هضبة محاطة بشجر العرعر والامهرية ينتشون على اعدائهم في كل شجرة من تلك الاشجار وحالما يرون واحداً منهم يرمونه بالرصاص . وتقدمت الى شجرة علمت ان فيها ثلاثة اربع الجماعة ان يرموهم وكانت الشجرة عالية مشتبكة الاغصان فجعلت انظر من خلالها حتى رايتهم بعد الجهد وادرت ان اخلصهم فاشرت اليهم ان اتزلوا فاطلق سيبلكم وعاليكم الامان فلم يصدقوني وبقوا متعلقين باعلى الاغصان لا يبتظنون بكلمة فتقدمت لاصعد الشجرة لعلني افنعمهم اذا وصلت اليهم فحالما امسكت الجذع سمعت صوت طلق وسقط واحد منهم امامي ميتاً وتراكض الجنود اليه ليفطعوه واختصموا عليه وازدحموا حتى ما استطعت الخروج من بينهم الا بتجريد سيني

وفي ذلك الوقت اعلن الملك رجوعه الى انغولولو واسرع في المسير جداً حتى كان يقطع المراحل بسير حثيث لا يبالي بشدة الامطار فاضراً المطر بروشى كثيراً . وكانت الغنمية التي غنوها ٨٧ الف رأس من المواشي فضلاً عن الاسرى وكان حظ روتى منها الحصول على حريته ليرجع الى بلاده وقد بلغ منزلة رفيعة جداً حتى لقبه الملك بالوالي او الحاكم ونظمو في مدحها الاشعار الكثيرة وعرض عليه الملك احسن الولايات لكي يبنى في بلاده فابى لشدة شوقه الى الوطن

العزير وخصوصاً لان صاحبيه السائحين سافرا الى غندار
 فبارح روتى مملكة شوى ومرّ بقرية اليو أمبا في ولاية ابفات وكانت فيها
 سوق ثقام في اوقات مخصوصة وتعرض فيها اصناف البضائع المعروفة في افريقية
 الشرقية واستبضع ما ازمه لنفطع بلاد عادل. ومن تلك البضائع البن والنظن
 والتغ والعبيد ياعون بادوات زجاجية. والمنسوجات النطنية والحريرية
 يوتى بها عن طريق البحر الاحمر. والمعاملة التي يتعاطونها لذلك قطع من الملح
 اهليلة الشكل طول الواحدة نحو ربع ذراع وسعكها نحو قيراطين ويسمونها
 هناك عمولة والعشرون واحدة منها تساوي تالرو (عبارة عن نحو ٥ فرنكات)
 وهم ينفونها جهدهم من الرطوبة ومع ذلك فطالما تلتفها خصوصاً في فصل الشتاء
 فتصير قيمتها قيمة الملح التجاري لان وزنها ينقص الذوبان جاب منها. واسعار
 الماشية في السوق المذكورة بخسة جداً فالخروف يباع بخمس قطع من العمولة
 اي نحو فرنك وربع واما الثور فيباع بسبعين قطعة. وقس على ذلك
 وفي اثناء تجول روتى في ذلك النظر راي حمة اي نبعا حاراً وتتل عند
 نرين فنرح الالهالي بذلك فرحاً شديداً فالجّ عليه الملك وامرأته المحاحاً شديداً
 ليقى في البلاد فاعندر واستاذن بالرحيل وركب الطريق المودية الى تاجرّى
 وعرف في اثناء الطريق ان الرسائل التي كان يبعث بها الى فرنسا كانت تقطع
 قطعاً وتوزع بين الناس بصفة طلاس. وانتق له ايضاً لثناء صاحبه نفيسة الافة
 الذكر. ثم بلغ تاجرّى ومنها مضى الى زيلع ثم الى مخا ودخل مصر والتي عصا
 الترحال في فرنسا في آخر سنة ١٨٢٥. وبعد مدة عيّن قنصلاً لفرنسا في جرة
 فتوفي بها سنة ١٨٥٤

الباب الثاني

رحلة برتون وسبيك

١٨٥٦ - ١٨٥٩

الفصل الاول

وصف ساحل زنجبار - جزيرة ومدينة زنجبار - ممباس ونجاني

القسم من ساحل افريقية الواقع بين راس الفيلس ورأس دلجارو (كناية عن عشر درجات من المنطنة الاستوائية) يشبه قوساً كبيرة تقعيرها الى جهة البحر الهندي . والنسم من هذا الساحل الذي يصل الى خط الاستواء ممتداً على مسافة بعيدة من شاطئ البحر منخفض رولي قاحل واحوال هذا الساحل مجهولة تقريباً الا ان جزئاً منه تسكنه برابرة الجباله ويقال لهم الصومالة وتجنازه قوافل التجارة الى بلاد قبة ونسنة سواقي قليلة وتنشق من اطراف مضاء انهر تجري بعيداً الى جهة الغرب . واكد قبطان انكليزي انه راي من البحر ثلجاً مقيماً كل السنة على قننه الشامخة

واول نهر يصل اليه الساعح يقال له نهر جوب مصدره ذوب هذه الثلوج ومنعه على خط الاستواء وصعد به بعض السياح الى مسافة بعيدة . ورُجي انه يكون آمن سبيل للوصول الى منابع النيل (ليعلم ان هذا الكلام كان قبل

سنة ١٨٦٠)

واذا تقدمنا على الساحل المذكور جنوباً يتغير منظر الطبيعة فترى الارض عند الشاطئ مسنهلة مكسوة بنبات غرض كثير جداً وعلى بعد قليل من الشاطئ ترتفع الارض دفعة واحدة وتدرج في الارتفاع بدرجات متتالية الى ان تنتهي بنجد عظيم يقال له موقارنجا حتى ان من ينظر الى البلاد من البحر يراها كسلسلة جبال مستعرضة بازاء شاطئ البحر . وفي السفوح كثير من الغابات وتخترقها اودية كثيرة تستطيل الى جهة الشاطئ وتخترق منها انهار كثيرة على ضفافها انواع النباتات المدارية المثلثة . ومن هذه الانهر دانا وسباني وهو قريب من فرضة ميلندة القديمة المشهورة . وبنجاني وقنجاني ولوفدشي ورُعوما ومن طعم مياهها يحكم على انها صادرة من الثلوج الذائبة وقال كريف وربان من مرسلتي الانكليز انها رايا على بعد شاسع من الساحل بين تلك الجبال قننين شامخين يسميهما الاهالي قليمان جارو وقانيا والتج عليهما دائم

والبلاد الجميلة المرتفعة تسمى في جهة الشمال أوقباني وما يلي جنوباً جاجعة ثم اوسمبارة وبعد ذلك متقدماً الى المغرب يقال للمضة العالية أونيا موازي . ومن وراء ذلك ثلاثي في مجاهل افريقية الوسطى . وكان يقال قديماً بتاكيد ان في هذه البلاد المسماة اونيا موازي بحيرات كبيرة تملأها مياه الامطار المدارية الغزيرة فتتشق منها انهر كبيرة . والقوافل التي تسير من الساحل الى جهات تنغا وكيلوا وبجاموبو لتطلب العاج في الداخلية والعبيد ونحو ذلك من اصناف التجارة تقول باجماع انها تصل من طرق مختلفة الى بحيرات كبيرة لانجاز الا بالنوارب الكبيرة . فوجود هذه البحيرات اثبت فضلاً عن الفائدة الجغرافية وجود اسباب تجارة مهمة في تلك البلاد الخصبة الغنية . وبهذا السبب عذت انكلترا اللجنة لاستقراء تلك الاقطار وفي مقدمتها رجلان من ضباط عسكر الهند وهما برتون وسبيك صاحبا هذه الرحلة . فاستفيد من اخبارها ما سيأتي في

الفصول التالية

والنظر المختص الملاصق للبحر يقال له مريما وهو كثير الخصب لكن

غير طيب الهواء فلا يمكن للغريب ان يستوطنه ما لم تنسبه الحق . وسكانه على
الاكثر ليف من السودان والعرب يقال لهم السواحلية . ويقطنون ايضا في
بعض جزائر بازاء الساحل مثل جزيرة ببا المشهورة بنصب تربتها ووفرة
بساتينها وجزيرة زنزيبار وهي اكبر تلك الجزائر واكثرها نجاحا وفيها مقام والي
البلاد ومدينته المعماة باسم الجزيرة حديثة العهد وكان يبلغ عدد سكانها في
اوقات رواج التجارة اكثر من خمسين الفا وذلك لانها سوق افريقية الشرقية
يفصدها العرب والاوروبيون وتجار الهند لتبادل الاصناف الافريقية والاجنبية
وازقة هذه المدينة ضيقة متعرجة وقد عمل لها الاوروبيون مجاري
للغاذورات فصارت نظيفة سليمة الهواء الا ان ازدحام المنازل في وسطها سبب
لفلة النظافة وبيوت العرب فيها من الخارج بيضاء كالثلج وكلما كان البيت كبيرا
كانت مسامير ابوابه كبيرة واقفاله ضخمة ودل على عظمة صاحبه وفي داخل
الباب الاكبر كتابة بصفة طلسم تقيهم المساوي ومن خارج سلسلة حديد لمنع
الصوص وكل المنافذ صغيرة كانت او كبيرة مشبكة بالحديد

وقرب وسط المدينة من جهة البحر حصن له اسوار مشرفة وابراج مستديرة
وامامه عشرون مدفعا قريب بعضها من بعض جدا حتى لو اطلقت سقط
الحائط الموضوعة عليه فلو حاول زورق واحد اخذ القلعة المذكورة لما عجز
حتى قبل ان رجلا واحدا اميركا دخلها بسيفه لتخليص احد رفاقه ولم يستطيعوا
دفعه . وفي داخل القلعة السجن الوحيد في البلد ولا تضيق فيه على المسجونين
وليس في المدينة شيء من الابنية التي تستحق الذكر

وعلى الساحل تجاه الجزيرة اسواق التجارة القديمة التي صار اكثرها مدنا
ناجحة في زمن البرتوغاليين منها ممباس وتنغا وبنجاني وبجاموبو . واما ممباس
فاشتهرت بغناها وتجارتها سنة ١٢٣٠ وافتتحها البرتوغاليون سنة ١٥٠٥ ثم
اخذها العرب سنة ١٦٩٨ وبعد ذلك صارت لامير زنزيبار وهي مبنية على
صخر مرجاني قرب البر وفيها آثار كنائس قديمة وحصن برتوغالي كبير كثير

الابراج المستديرة والقباب المحاطة بالاشجار وعلى البرّ بازائو رياض انيقة متسعة
والى شمالي ممباس على بضعة فراسخ قرية ربّاي ممبا التي بنى فيها المرسلون
الانكليز منزلاً جميلاً ثم هجروه لعدم نجاحهم في مقاصدهم
واما تنغا فهي قرية اهلها نحو خمسة آلاف حولها غابات من النارجيل
والكزب قائمة على هضبة تشرف على البحر وهي نقطة ارتحال القوافل التي تذهب
شمالاً الى بلاد ماساي . ويتجاني بلدة اخرى على مصب نهر باسها وهي بين
تنغا وزنزيبار في موضع انيق نضروفي شماليها غابات النارجيل وجنوبيها
مرتفعات الشاطئ . فتظهر من داخل الوادي الجبال الشاسعة الزرقاء ومن
الجهة الاخرى البحر الفسح وعلى ضفة النهر بين تلك الغياض الكثيفة منائر او
شبه مراقب تجعل لذلك الوادي شهياً بمضيق اليوسفور . وابنية البلدة اكواخ
من الفصب لكن فيها بعض بيوت مبنية بالحجر ويكثر النهر في الغابات المجاورة
لها وكثيراً ما يقتحم المنازل . وفي النهر كثير من التماسيح لا تنزال تخطف الاولاد
الذين يدنون من ضفتيه . وعلى ما تقدم صفة بجاموبو وكيلوا وهما الى جهة
الجنوب



الفصل الثاني

مجرى سفر برتون وسيلك

في ٢ كانون الاول سنة ١٨٥٦ كان خروج برتون ورفيقه من بباي وکانا قد تعوذا استغراء الاراضي الافريقية وفي عزمها هذه المرة ان يتوغلا في داخلتها . ففابلا ساحل زنجبار في ١٨ منه فرأى برتون منظرًا عجيبًا وصفه وصفًا جميلًا

ودخلا جزيرة اسمها تيمبانو يقال لاهلها الموحدون وعندهم كثير من الخرافات الوثنية ورأيا ايضًا جزيرة مبيا التي يدعوها العرب جزيرة الزمرد وفي ٢٠ منه القيت المراسي امام مدينة زنجبار فاستقبلها هامرتون فنصل انكلترا وترحب بهما كثيرًا وكان رجلاً صاحب حمية واقدام وهنته كفت التعديات عن الاجانب هناك واخبر برتون ان حاميتهم كان اميرًا اسمه سعيد وقد توفي منذ عهد قريب فاسف عليه الاوروبيون جدًا وكان فصل الشتاء قريبًا ايضًا فاشار عليها ان يترأصا بضعة اشهر ويتجولا في سواحل البلاد . فقبل برتون رأيه وعزم على التطواف في السواحل فاستصحب دليلًا من العرب يقال له سعيد ابن سالم وكان فتى وديعًا بخلاف اهل البلاد . وركب هو وسيلك فلكًا عربيًا وفي ١٦ كانون الثاني سنة ١٨٥٧ ارسيا في ممباس فرايا الناس افواجًا على الشاطئ ينظرون اليهما ويسالونها اسئلة مختلفة ونساء السودان يقتسلن في

البحر والاولاد يترაკضون على الرمل وهم يصيحون «مُزْنُخُو مُزْنُخُو» اي رجل ايض

فاقاما مدة في مباس مضيا بها لزيارة المرسل الانكليزي ريمان وكان قد تعود هواء البلاد وجربته السباحة في الداخلية فافادها افادات مهمة . ثم عادا الى تنغا ونجاني واخذا يتاهبان للرحيل وركبا نهر بنجاني ابصلا الى قرية فوجة حيث مقام السلطان قوبر ويتوجها الى اوسمبارة . فشيا في النهر اياما وهو هادٍ رائق عريض عند مصبه الا ان فيه بعض شلالات . قال برتون وكان ندمنا بطيئا متعبا لكن لذيذا بحسن المناظر وكنا نرى فرس النهر يبرز راسه من الماء وينظر الينا نظرا وحشيا ثم يغوص ونوعا من التساحق فيج المنظر هائل الخالب غائر العينين تمشي على وجل الشاطئ وينف ناظرا الينا كالجدع المدد . والثرود ثواب في اعالي الاشجار والرجال والنساء يصطادون السمك بشباك خشنة وخضرة الاشجار من الاحوى الى المصفر والمحمر تكسو الضفتين ومن جملة الشجر نخل قصير غليظ الجذع جدا يسمونه نخل الشيطان له سعف ضخم كنفذ الانسان طوله نحو ٢٠ ذراعاً ومن وسط البساط السندسي نمت الاشجار ترتفع زنايق بيضاء كرفع الثلج ومع ذلك فالملاد قليلة السكان لابلوح للمناظر الا آثار قليلة من الناس ولا يسمع غالباً الا صياح القرى (نوع من الطير) وحنيف الاشجار بالنسيم الخيل

وعند الغروب باغا صخراً قائماً في وسط النهر ايض عليه اشجار قديمة يسميه الاهالي بير واسين وبروون انه كان شيخاً عربياً شريفاً الاصل نمت يده جماعة من المؤمنين فجهم عليهم هناك البراسة وهزمهم فطلب الشيخ ان تنشق الارض وتبلغه لشدة حياؤه من الهزيمة . ولا يسمعون بقطع شي من الاشجار التي عليه . وان الاهالي يذهبون الى هناك لزيارتهم ويطبخون وياكلون ولا يلحسون اصابعهم خوفاً من الارواح الشريرة المستمرة طائفة حوله ولا يمر حرس امير زنزيبار من هناك الا ويطرحون في النهر شيئاً من ورق الشجر والبارود

والرصاص

وفي اول الليل بلغا قرية ذات ادغال كثيفة فنزلاها وترحب بهما الناس
وبانا تلك الليلة في غابة حسنة على ضفة النهر وفي نصف الليل ركبا الفلك
وتقدما الى قرية شوغواي وهي مركز البريد موقعها بين الجبال تشرف على
العقبات المودية الى اوسبارة وفيها جماعة من الحرس السلطاني. وحاكهما الملقب
بالجامدار احسن الاوقات اليها واصحبها برهط من الحرس وجماعة من العبيد
لحمل الاثقال لكن لم تكن الجنود حسنة الطاعة على الطريق فبعد عشاء ومضض
وصلا الى قرية اسمها قوهوداي على الضفة اليمنى من النهر والاشجار حولها مشتبكة
كثيرة جداً وحولها حاجر حصين لانقاء الوحوش واللصوص واهلها كلهم سودان
فلاحون منازلهم اكواخ صغيرة بين مربع ومستدير والماشية تسرح حولها من
بقر وماعز وغنم ونحو ذلك

واستمر سيرهما في مسالك صعبة مستوعرة تحمت امطار غزيرة والقرى
مشورة على الطريق واهلها يستوقفونها في كل وقت ويسالون اسئلة مختلفة
لانهم هناك شداد الرغبة في الاطلاع على الاخبار الجديدة

قال برتون فلما انتهينا الى ارفع مكان من طريقنا نجينا اذ لم نر نجداً وما
وقع نظرنا الاعلى قارات مستديرة مخروطية خضراء من الكلا وفيها مسالك
ضيقة حمراء التربة والاشجار كاسية اكثر سفوح الجبال وفي الوهاد منافع تدفها
سواق صغيرة الى جهة الشمال الغربي جبال كبيرة الى منتهى البصر وكما حينئذ
على علو ١٢٠٠ متر عن سطح البحر . وبعدها تقدمنا نحو فرسخ عطفنا في غابة
فراينا امامنا عدة اكواخ مخروطية فكانت هذه قرية فوجة فاطلى الجنود بنا دقهم
فخرج الناس من منازلهم ومضوا بنا الى منازل الغرباء واقبنا نتظر اذن السلطان
بوجهته وكان حظنا في لقاءه متوقفاً على خاطر الحجاب وهو لقب رجل له في
تلك الارض سيادة خوري وعرف وطبيب فالكل يهابونه شديداً . ومثل
هذا الرجل كثير في انحاء افريقية ولا سيما الوسطى وله في كل مكان لقب خاص

ومن غريب زعمه في الاواسط انه يستمطر السحاب . والمحجما هو الذي ينضح على الغريب دمًا او نحوه بواسطة ذيل بقرة وذلك اذا كان الغريب غير معروف وهو الذي يتفل للمحضرين ويكل نفوسهم الى الله وهو الذي يشرّد عن المرضى الارواح الشريرة وهو الذي يضع على العاج الذي يرسل الى السواحل سمات سمحية نقيه من كل عارض وهو الذي يكشف الدسائس المزعومة عندهم لايقاع الوالي في الامراض ويعاقب اصحابها بان يوسوا حديدة عمياء فاذا كانت التهمة باطلة يزعم ان الحديدة لاتؤذيهم وله غير ذلك من الاعمال . فهذه قوة المحجما العجيب الا انه يكون مع الغريب لطيفًا ويمكن استرضاءه بتقديم شيء من الخنف فيبقي على الغريب عنايته

قال ثم ادخلونا الى منزل الملك وهو في حضبض اكمة على بعد قليل من القرية وكان نائمًا فاستوى جالسًا عند دخولنا واجلسنا على اسكلمات صغيرة . وكان هرمًا مخجلًا جدًا ليس في راسه شعرة ولا في ذقنه ولا في فؤوسه . احمر المحاجين ارض البدن والرجلين بلبس طربوشًا وسنًا وجبة رثة من جوخ وفوقها رداء قطني مبطن ونحوه طنفسة عجمية بالية وليس في منزله شيء يمتاز به الا وجود خواصه يتحدثون فيما بينهم وبعضهم يروح له ومع كل واحد قصبة طويلة فيها غليون من العاج . واخبروا الملك اننا نفحص النجوم والشجر والبحر فطلب اليانا ان نركب له دواء يعيد اليه صباه وقوته فاجبتنه اننا تركنا كل عناقيرنا في بنجاني فقال انه يسهل وجود عناقير في جبال بلاد . وبعد رجوعنا الى ماوانا ارسلنا اليه هديتنا فارسل عوضها عجلًا ظريفًا وسلة مملوءة من خبز البلاد وشبثًا من الموز الاخضر مغموسًا بمصل اللبن

واسم هذا السلطان قموير اي اسد الرب وهو مستبد الحكم يبيع رعاياه عبيدًا لتجار العبيد وياخذ اوفر نصيب من الهدايا ونحوها مما ينال الاهالي من الاجانب وله حرس مولف من اربعمائة جندي كلهم اصحاب بنادق وله حق ان يتزوج ثلثمائة امرأة لكل واحدة منزل وخدم وله تسعون ولدًا صار اكثرهم

مسلمين وبقي هو وثبًا

وقرية فوجة قاعدة بلاد اوسبارة اهلها نحو ثلاثة آلاف نفس والاكوخ
هناك مستديرة كما هي العادة في كل افريقية الوسطى من حد حرار الى تمبكتو .
واهل اوسبارة يخلطون بالعرب فلوهم اسير وهم صغار الاجسام اشداء يخلقون
رووسهم ويمشون حفاة ويعلفون طلاس في رقابهم وكعوبهم وايدهم ويلتفون
كساء على احفائهم وتمطفون بحمل يعلنون به سكينًا ولا يخرجون من مكائهم
الا ومعهم الغليون والثوس والنساء يتغلبن بثلاثد من خرز ابيض ثقيلة جدًا
ويلبسن قميصًا يعقد تحت الابط و يرسل الى الاقدام ويتعاطين الاشغال البيتية
والرجال يشغلون في الحنول ويرعون المواشي وبضطادون الظباء وغيرها
ومن شغل النساء ايضا الاحتطاب ودق الحبوب بالهواوين . واكل اللبن عندهم
نادر واندر منه اكل اللحم كما هو شاف سائر البرابرة . وابقارهم قليلة الدر
واوقات درها غير مرتبة وهؤلاء القوم موصوفون بالجبن والبله

ولما كان الحرس الانكليزي لا يستطيع احتمال البرد اضطر الجماعة الى
الرجوع فاسف الملك لانه فاته رحيلهم الدواء المعيد الشباب . ففي ٢٠ شباط
وصلوا الى شلالات النهر ثم بلغوا شوغواي . وبعد وصولهم الى بنخاني اصابت
برتون وسبيك حمى شديدة فركبا سفينة الى زنزيبار بعناء عظيم

وهذه الحمى سائدة في كل افريقية من بلاد الجزائر الى راس الرجاء ومن
سنغال الى راس الفلّس ولا ينبغى منها احد من الاوروبيين وهي تندى بانحطاط
عام وتقل الاعضاء وتحدرد الدماغ وتفرز شديد ثم يشعر ببرد صعب الاحتمال
ووجع في الاكتاف وبعد ذلك تحدث قشعيرات وصداع اليم وحرارة في الوجه
واحتقان الاوردة وهي عظيم حتى لا يستطيع المحبوم وقوفًا ونعوض العيون من
ثقل الجفون واذا اجتهد العايل يفتح عينيه يشعر بالنهاب مؤلم ويسرع النبض
وتكسو اللسان فروة وتفقد شهوة الطعام ويستولي عطش محرق حتى لا يروى
صاحبه . والليل اشد الما من النهار حتى يشتد الهذيان . لكن يجزى دائمًا من

الفصل لان به الهلاك قطعاً . ويجب على السائح ان لا يخلو مطلقاً من الكينا
ويغذها في فترات النوب . فاذا كان سير المحي خبيثاً نتعاطم الاعراض
ويخل العقل تماماً ثم يحدث تحسن ظاهر وبعبء حلا فند الشعور والحمول
ثم الموت . واذا كان سيرها حسناً الى السلامة نناقض في اليوم السابع ويتحسن
اللسان ونسكن الآلام غير ان مدة النة تكون طويلة وصعبة فيوافق جداً
تغير الهواء لكن لا يزال العليل يشعر الى مدة طويلة ببعض اعراضها كاجاع
حاد في الفك وانحطاط القوة واضطراب العقل وبعضهم يقضي حياته ولا يشفى
تماماً . غير ان صحة بنية برتون وسيلك وحسن المعاملة مهمة هامزون ما
ساعد على غلبة هذا الداء الخبيث فشفا تماماً في بضعة اشهر وكانا في
تلك الاثناء يتاهبان للرحلة الكبرى الى البحيرات الداخلية على ما ياتي

الفصل الثالث

سفر برتون وسيلك الى البحيرات الكبرى

سفر برتون وسيلك الى البحيرات الكبرى

في ١٤ حزيران سنة ١٨٥٧ ركبا سفينة لامام مسقاط وبلغا قرية قولاي
على مصب نهر قنجاني وهي اول البر الذي قصدنا دخوله فصادفنا هناك من
الصعوبات ما يصادف كل سائح في تلك الاقطار فكانا قد ارسلنا وكيلها سعيد
ابن سالم ليستاجر لهما رجالاً ودواب لحمل الاثقال فما استاجر اكثر من نصف
المطلوب وكان نجار العرب يخوفون الناس من سكان اواسط افريقية حتى

لا يصحبوا الا فرنج في رحلاتهم فصعب عليها استئجار جماعة كافية لكن يذل
الدرهم والصبر والشهامة اكل برتون جماعة وسافر في ٢٧ حزيران وكانت
القافلة موفقة من ١٢٠ رجلاً بين سودان وعرب مختلفي الاجناس والاطوار
وعلى رئاستهم برتون وسبيك

واهم من يذكر من هذه الجماعة اولاً سعيد بن سالم المار ذكره ومعه امرأته
واربعة عبيد ثم قهرمان سبيك وصاحب سلاحه واسمه مبارك بمادي وله صفات
غير عريضة في سلالته السوداء . وخادم آخر له اسمه موني مبروكي وهو فظ
الطباع شره النفس بغض الخلق والمخلق متطرف في كل اعماله شديد الحرص
على ما بيده وكثير الطمع في ما لغيره . ثم خادمان آخران من مولدي البرنوغالين
والسودان في غملا اسم احدهما جيتانو والآخر والنتين يوصفان بالجفاء وحب
السيادة والسرقة والكذب والشرافة وضعف الطبع لكن كان والتين قد تعلم
لغة السواحلية واستعمال الترمومتر والبارومتر وانواع الطبخ والخياطة وكان
جيتانو حريصاً على مواساة المرضى جسوراً لا يهاب خطراً مقدماً على الاهوال
لا يبالي بالموت . ثم عشرة من جنود الحرس معهم البنادق والسيوف والندوس
والخناجر وكانوا مأمورين بحراسة السائحين تحت مسؤولية شديدة ورئيسهم
الجامدار ملوك اعور فظن ذو دهاء ومكر . ثم المكارون ونحو اربعين حملاً
وكانت الاحمال موفقة من ثياب حريرية وقطنية وقلاند من خرز او خزف
صيني واسلاك حديد ونحاس يطلبها البرابرة كثيراً

فكان برتون مع مثل هذا اللفيف مضطراً الى شدة تيفظ وحسن تدبير
فكان كل يوم ينشط الكسالى ويوقظهم من نومهم ويحث الحاملين والمكارين على
الهمة والجنود على التحفظ والسهو ويسكن الشغب ويلاطف الجناة وهلم جرا .
وكانت الايام الاولى متعة والطريق التي سلكوها في وادي قنجاني تمر بعدة قرى
وتتحل الغياض والعوج المشبك والنباتات المتنفة والارض رطبة من ماء المطر
والضباب فاسد الروائح . فلم يمض اسبوع حتى سقط سبيك بثقل الحصى

واصاب برون بعض اعراضها فبالمشنات والواجاع بلغا قرية ذيل المهرة حيث قتل السائح ميزان من عهد غير بعيد

وكان ميزان هذا فتى من ضباط البحرية الفرنسية فخطر له سنة ١٨٤٤ ان يكشف البحيرات الكبرى فصوبت الحكومة رايه وارسلته الى جزيرة بوروبون فمضى منها الى زنزيبار صحبة القنصل بروشان وكان سلطان زنزيبار قد عقد معاهدة حديثة مع فرنسا. وكان ميزان تلميذاً في مدرسة اللغات وحصل معارف كثيرة واتخذ الآلات علمية وادوات من كل نوع كلها غاية في الاتقان والظرف فكان لثلة محبته يكشفها امام اهل افريقية فيطمعون فيها لما لها من البهاء واللحان لان اكثرها ادوات نحاسية مذهبة او فولاذية مجلوة صفيلة ومن الجملة تنافحة نحاس مذهبة كانت في راس عمود خيمته ووجدت بعد حين معلنة في عنق الذي قتله

فلما وصل الى زنزيبار شاع الخبر بكثرة عن مطامع فرنسا وتحدث الناس بمناصدها في وضع قدمها في تلك الاقطار وكان التجار الهنود الذين يدهم زمام تجارة السواحل كثيري الحذر شديدي المكر يشيعون الاراجيف عن الامم الداخلية ويوهمون الناس مخاوف كثيرة. وقضى ميزان في زنزيبار شهرين يتعلم اللغة السواحلية. وقبل ان يخرج في رحلته ساح ثلاث مرات في السواحل المجاورة حتى تمت لاعدائه الفرصة لنصب مكائدهم. ولم يحسن ملاطنة العرب الذين يجهلون في طريقه من الطوارق بل استعجب رجلاً من اهل اوتيا موازي ولزيادة نخسه رفض استعجاب الحرس الذي عرضه عليه السلطان ليسير معه الى الداخلية وهكذا اتى نفسه بلا تنصر في ايدي رؤساء البرابرة الجفنة

وعند انصرام فصل الشتاء سنة ١٨٤٥ بلغ مجامبوو وهناك صرف الحرس الذي كان معه وعدده اربعون رجلاً من اصحاب البنادق وقدم وحده في الداخلية قاطعاً نظره عن نصائح رفيقه الاوتياموازي ولم يبق معه من الرفاق

الارجل من مادكسكر اسمه فردريك ورهط من الحمالين . وخطر له في طريقه ان يزور فازي مازنجرا رئيس واقبة وهي قسم من اوزارومو . وكان منام الرئيس المذكور في قرية ذيل المهرة فرحب به واظهر له الودّ رياء فانخدع ميزان بظواهر ملاطفته وقضى عنده اياماً بالسلام والانس حتى اطمان قلب ميزان

ففي ذات يوم قال له الرئيس انك ارسلت نخباً الى جماعة من الرؤساء . وطال به الملام حتى استشاط غيظاً وادّى به الحق والحقد الى ان قال له وانت تموت الآن في مكانك . ثم اشار اشارة فانقض على ميزان جماعة من البرابرة وبايديهم عودان كبيران فاما فردريك فحمله امرأة الرئيس فصاح بميزان ان يلجأ اليها فيخلص فلم يفعل واخرجت المرأة خارجاً ثم ربطوا يدي ميزان باحد العودين ورجليه بالآخر فصار مشبوحاً بينهما فحملوه الى تحت شجرة كبيرة خارج القرية وصاروا يغنون اغاني الحرب ويضربون الطبل وتقدم الرئيس مازنجرا وصار يقطع اطرافه شيئاً فشيئاً وهو يسأله اين خبأ نخبه فلا يجيبه بل يظالم الى الله ان يغفر ذنوبه السابقة ويقبله في احضائه ويذكر اسماء الذين نصحوه فابي اتباع رايهم . وراى الرئيس ان سكيه تثلث فتعد بحدها على حجر وعاد الى عمله الفظيع واخيراً قطع راس المسكين كانه حمل للذبح . وعاد يسأل الذين يحرسون امنه عن مكانها ويحاول ان يخذلهم ليمسك اليه شيئاً منها

وكان فردريك قد فرّ عائداً الى زنجبار واخبر الفصيل بروشان بالحال فسنة ١٨٤٦ وصلت سفينة حربية الى زنجبار لطلب قتلة ميزان وارسلت الى الداخلية متي رجل بالبادق للحاق الرئيس الظالم فلم يجده لانه هرب وامعن في الاختفاء وكان ضميمه لايزال يوجه بعنف ويرى في النوم رؤى هائلة حتى اخل وعاش نية ايامه مجنوناً ذليلاً حقيراً

وبعد ان وقف يرتون على هذه الاخبار رحل برفاقه من ذيل المهرة

وبلغوا نهر محيننا فاجنازوه ودخلوا مقاطعة خوطو وهي ارض وبيئة لكن يكثر
تردد الفوافل اليها وقاسى الجماعة فيها من المشنات شيئا كثيرا . لان الطريق
الى مسافة بعيدة بين نباتات عالية تندى بالرطوبة الى نصف النهار والوحل
لزوج مزلق كثيف فيه كثير من اصول النباتات ثم دخلوا بعد هذه الفياض
ارضا ماشقة مشقة بالحرارة كثيرة المحشيش اليابس . وثلاث مرات اجنازوا
مناقع فسيحة جدا كانوا يعرقون فيها الى الركبة في الوحول والمياه فقطوا عناء
عظيما . وصارت الامراض تستولي عليهم وما زاد عناهم ان حمير افريقية كثيرة
الجموع والعشار والكبو والشرود عن الطريق فخبث اصحابها وضمت
صدورهم وسقط سيك مرتين عن دابته لسوء مسيرها

وفي ٢٤ تموز خرجوا من قرية دتوي ودخلوا ارضا يتعاقب عليها المطر
وشدة حرارة الشمس وكلها هضاب متوالية خبيثة الهواء لا يسكنها الناس ولا فيها
زرع وهناك تندى ادغال افريقية المختلط فيها الشجر والعوسج والعليق
والاعشاب المتكاثفة المشبكة اشدا كما عجيبا حتى لا يرى السائر ما امامه على
مسافة ١٠ خطوات لشدة الظفافها . والارض هناك وحلية سوداء مكسوة بالاشواك
او الاعشاب التي علوها نحو عشرة امتار وورقها في عرض الاصبع لشدة غوها
وكثيرا ما تعترض هذه الاشياء في الطريق فتسده ويخفي لدى السابلة .
والرطوبة سائدة هناك ترتفع منها بخرة كريهة كان هناك جيبا ممتنة . والجو مع
ذلك لا يزال اغبر تكاثف فيه الغيوم فتضربها الرياح وتمزقها وتصب منها
سيول المطر بعنف شديد . فالذي يكون في تلك الارض يشعر بسقوط قوته
وتلاشي اعضائه وخمول عقله ونحو ذلك مما تكره معه الحياة . وبعد ذلك ترى
بعض اكواخ لامة خبيرة فخبيرة ساقطة جدا سودان ابدانهم هزيلة جلودهم قاحلة
ملا بسهم بالية بكثرون من المسكرات . فهذه حالة افريقية الشرقية من خوطو
الى اوزاجارا

فلما بلغوا زنجومبرو مكثوا فيها من ٢٥ تموز سنة ١٨٥٧ الى ٧ آب وهي

قرية خبيرة كثيرة الامراض في وادي رطب لكن فيها محط القوافل وملقى الطرق التجارية . ومن ورائها ترتفع الارض بسفوح متحدرة جرداء الى ان تنتهي بنجد افريقية الوسطى فيصير الهواء طيباً

والسودان الذين في الاقطار المار ذكرها كالوازارامو والواخوطو لهم عادات واخلاق كسائر سودان افريقية الوسطى الا في بعض احوال والوائهم من الامر الى الاسود الحالك والوشم بينهم شائع ويجرحون وجوههم ثلاث جراحات من زاوية الفم الى قاعدة الاذن ويصنعون من المغرة ودهن الخروع مرهما يدهنون به شعرهم ويعملونه حلقات وخصلاً مختلفة الاشكال وعبود الوازارامو مائلة قليلاً وانوفهم مفلطحة عريضة وشفاههم ضخمة بارزة وذقونهم ناتئة فيها شعرات خفيفة ولياسهم ثوب قطني يسير النصف الاسفل يصبغونه بلون اصفر وتحت كلون تربة بلادهم ويلبسون اساور وقلائد زجاجية ويعملون من الصدف صفيحة لجباهم او يعلقونها في اقبنتهم وقد يجعلون في معاصمهم اساور من نحاس او قصدير . وللامنين المذكورتين اي الوازارامو والواخوطو حلية خاصة يسمونها مجويكو وهي قلادة عريضة من اللؤلؤ والخرز الاحمر والاصفر والاسود والابيض . والرجال لا يخرجون الا بسلاحهم وهو البنادق والرماح والسهام المسومة والسيوف والخناجر الطويلة يصنعونها بايديهم من حديد يشربونه من القوافل

واكلواهم مستديرة يعملونها من اوتاد يغرزونها في الارض ويشدونها بالطين واعصان الخيزران يعملون لها سقفاً مخروطياً

ولهم عادتان ممتازتان توجدان ايضاً عند بعض امم الداخلية . الاولى الاخاء ويقولون لها «ساري» وذلك انهم يغالفون على المصافاة والتعاقد لاحتياجهم الى معاونة بعضهم بعضاً في اكثر الاحوال . والاخاء عند الوازارامو يقصد به ايضاً اتحاد الصالح وحسم الخصومات وحماية الضعفاء من تعدي الاقوياء . ولا يكون الاخاء الا بين الرجال البالغين وطرق القيام به مختلفة باختلاف القبائل

فعند الوازارامو والواخوطو مثلاً يجلس الرجلان القاصدان الاخاء على جلد حيوان الواحد بازاء الآخر ويمدان ارجلها متداخلة بعضها ببعض ويضمان قوسيهما والسهمين على الاتخاذ بشكل صليب ويأتي رجل ثالث ويهز فوق راسيهما سيفاً وينطق باللعنة على من ينقض العهد ثم يذبحون خروفاً ويشوونه او يشوون قلبه ويانون به للمناخين فيخرج كل منهما بطنه تحت السرة جرحاً يسيل منه الدم على لحم الخروف ثم ياكلانه ثم يهدي كل منهما الآخر شيئاً من ثمنه ويبقيان مرتبطين بهذا العهد مدة الحياة والذي ينقض الاخاء يقتل او يستعد بحسب الظروف التي تقضى فيها . وطالما استفاد العرب هناك من مواخاة المودان فيفضون لهم مصالح مهمة

والعادة الثانية التي نستحق الذكر ايضاً هي انهم لا ياخذون لنفسهم شيئاً مما يجدونه على الطريق وخصوصاً اذا كان لابناء وطنهم فالذي يجد ضائعاً ويخص به نفسه يستوجب القبح اي الموت او الاستبعاد . واتفق ان برتون اضاع ساعته على طريق زنجوميرو فانوه بها ملفوفة بورق البانات . ومع ذلك لا يكون هذا الاعتماد مانعاً عندهم للسرقات

ولما تجاوز الركب زنجوميرو وبلغوا النجد انقلب الحال بهم حالاً فصار الهواء طيباً والجو صافياً وزالت الامراض كانت رقيت في الحال . لكن لم تطل لهم السلامة فانهم بعد مدة قصيرة دخلوا غياضاً وادغالاً ومناقع كالتى بارحوها اولاً فذاقوا العذاب الشديد فضلاً عن الخصومات التي كانت متواصلة بين جنود المحرس وبعض الركب وقل زادهم فاكلوا ما لا يطاق اكله وفسد الهواء واصابت برتون وسبيك حتى خبيثة ودخلوا معبراً من اشد الطريق هولاً يصلون منه الى نجد او جوجي وراء جبال روهيو

قال برتون بينما نحن نرتعد من شدة الحمى قابلنا شعباً صعباً في سفح جبل قائم فرايت هذا المسالك كسلم درجها قطع الصخور واصول الشجر وكان رفيقي سبيك ضعيفاً جداً حتى كان ثلاثة رجال يسكون به واما انا فما اجمعت

الا الى واحد فصعد الحمالون ذلك المعبر الهائل كأنهم قرود يتسلقون جدار هوة واما الحمر فكانت تعثر في كل خطوة وقاسينا من العطش والسعال والضنى عذاباً اليماً فتمنا مدة وحولنا صراخ الحرب في رؤوس الاكام والناس يزدحمون بسلاحهم ازدحاماً شديداً . وبعد ست ساعات من هذا العذاب المبرح بلغنا راس الجبل فانتعشت نفوسنا بالهواء السليم وانشرحت صدورنا بمنظر الخضرة وبهاـ الجبال والادوية النضرة

وفي هذه الشقة التي قطعوها باعظم العناء اصابهم ويل آخر شديد الاذى وهو لدغ نوع من النمل احمر ونوع آخر اسود اكبر من الاحمر فالنوع الاحمر يسير كالجيش الكثيف المزدحم ويتعلق بكل ما يعرض له بسرعة عجيبة واما الاسود فطول الواحدة منه عقدتان (من الاصبع) ورأسه ضخيم ومنسراه متينان جداً حتى يمسك بهما الفار والجرد وهو يحب الاماكن الرطبة وجوار المياه وله اقدام غريب لا يهاب شيئاً ولا يفر من النار ولا الماء الغالي ولدغته تكوي كالابرة المحماة واذا امسك شيئاً فلا يتركه بالقوة مطلقاً وهو عدو النمل الابيض المشهور بافريقية ويسر بالاكل منه وله عدو ايضاً من غل احمر يعمونه هناك بما معناه اللادغ المبيت لان عضته مولة جداً . واما الذبابة المسماة صيصى فقد ذكرناها في التسم الاول من هذا الكتاب وهي منتشرة من حد ضفاف النيل الى ضفاف زمبيز

وبلاد اوجوجي التي وصل اليها الركب بعد ان اجنازوا شعب اوزاجارا ممتدة في نجد فسمح على مسافة واحدة من الساحل وواوينا نيمي وسكانها ثلاث امم الوازاجارة والوحلية والواجوجو والقمع يكثر في سهولها وترى الماشية في الهضاب حيث يكثر الكلا لكن يسطو عليها لصوص واروري . واهل البلاد يبيعون التجار عسلاً ولبناً وبيضاً وسمناً وكلها انواع غير طيبة ويكثر فيها دجاج فرعون ومن حيواناتها نوع من ابن آوى ابيض ناصع كالفضة وفي سهولها الفيل والزرافة . وهذه نعل من جلدها التروس وعدد الخيل ولحمها الذيذ غير ان

وجودها قليل لكثرة صيادها

وهو اوجوجي معتدل نافع للصحة واثري في جماعة برنون تاثيراً حسناً جسداً وعقلًا فاجتازوا بسهولة الارض الاكامية الممتدة من اوجوجي الى النغم الشرقي من اونيا موازي . قال برنون بعد اربعة اشهر ونصف من سيرنا من الساحل وصلنا الى بادة قازة وهي مركز اخص للعرب وقاعدة اونيا نيمبي التي هي اهم مقاطعات بلاد اونيا موازي . فاحسن العرب لقاءنا بخلاف ما قبل لنا وكانوا لا يسيرون بالملابس المحسنة لم نر مثلاً عند غيرهم وقد ماولي كل ما طلبت ولو بالاشارة ولم يقبلوا ثمناً لشيء وحسبوا عرضي لبدل ما اتوني به اهانة . وكان اغني رجل هناك تاجر مخرب يقال له سناء بن امير جمع ثروة من صامت وناطق وهو اغني اهل افريقية الشرقية وكان قد اصاب بصحمه فاضطر ان يقيم في قازة وله من المخازن المملوءة بضائع بين ثياب وعاج وحلي ومن العبيد والماشية ونحو ذلك ما يحسب ضيعة براسها . واسانا احسن المواساة وقدم لنا حمالين وتكفل بتاهيب بضائعنا وهياً كل ما يلزم لرحيلنا وافادني بمجديته المفيد اموراً كثيرة فانه كان قد ركب بحيرة تنغانيقا ودخل بلاد قراچوة واجندة شمالي هذه البحيرة وعرف احوال تلك الامم وعاداتهم ولغاتهم وكان كثير الاطلاع وله ذاكرة عجيبة وذكاء عظيم وفصاحة وذلاقة لسان ولطف عشرة حتى عجت منه

ومدبنة قازة محط الرحال للتجارة في افريقية الشرقية واقعة في قطر خصب سليم الهواء ومنها تشعب الطرق الى زنزيبار شرقاً وبحيرة نيانزا ومملكة واجندة شمالاً وبحيرة تنغانيقا وبلاد اوجيجي غرباً واوروري جنوباً . وابنيها حسنة موافقة لراحة السياح وقد استوطنها العرب منذ سنة ١٨٥٢ فعاشوا عيشاً هنيئاً رغداً وترسل اليهم النفائس من زنزيبار وفي خدمتهم كثير من العبيد والحشرات وافرة جداً في بيوتهم

وبلاد اونيا موازي طيبة التربة حسنة الفلاحة كثيرة الثرى جيدة المراعي يكثر فيها البقر المسمن والماعز والغنم والعيش هناك لذيد لصحة الهواء وحسن

المناظر وكثرة العصافير المفردة وبقر الوحش واسباب الملاهي . وللنساء من العجوز الى الصبية عادة التدخين بالغليون يجدن فيها لذة كبيرة وبخروج الدخان من انوفهن ومن وقت الى آخر برطبان افواههن بالذرة الطرية او نحوها ويتحدثن اذا تركن الغليون احاديث مختلفة

والحيوانات في اونيا موازي لا تختلف عن التي في اوزاجارا واوجوجي ففي الادغال السهلية والجبلية اسود وقرود ونور وضباع وهررة برية وفي السهول الفيل والزرافة والجاموس وبقر الوحش . وفي الانهار الناسج وفرس النهر . ومن القرود نوع يقال له نياني او الكابي الراس وهو في شمال البلاد منه احمر واصفر واسود وكله كاسر . ونوع آخر يسمونه مبيجا عتة كثيفة الشعر وشعره طويل اسود لامع وعرقه ابيض وهو شديد الاعناء بنظافة جسده ويقول العرب بتاكيد انه اذا لمحه الصيادون يمزق فروته شذر مذر حتى لا يستفيدوا منها شيئاً لانهم يصطادونه لاجلها واكثر مقامه الاشجار يقنات من ثمارها او اخلافها الطرية . والعرب يذكرون ان في جوار اونيا نبيي نوعاً من الكلاب البرية ارتفاعه نصف متر وله فروة قاسية سمراء داكنة وذنب طويل كثيف الشعر ويعيش طوائف كل طائفة من ٢٠ الى ١٠٠ وهو لا يعوي ويهجم على الانسان والحيوانات الكبرى

وسكان اونيا موازي يظهر انهم انمذج السودان في تلك الاقطار لانهم اسمر قائم هيئتهم ابعد عن هيئة اهل آسيا من هيئة اهل السواحل وتنبعث من ابدانهم رائحة كريهة جداً وبرسلون شعرهم حتى يصير طوله اقل من فتر ويبرمون من الوراء خصالاً صغيرة لولبية ويجمعونه على النود كقدماء المصريين ولحامهم قصيرة خفيفة وليس في العارضين شعرة البتة ويتعلمون شعر شواربهم واهداهم وهم اشداء طوال الاجسام شجيمان خشان الطباع . وشارة النسب عندهم ثلاثة جراح تمتد من الحواجب على الصدغين الى قرب الذقن وثارة تكون جرحاً مثلث الخطوط تمتد من الجبهة الى الانف والرجال يلونون هذه الخدوش

بالاسود والنساء بالازرق ويضفن على ذلك خطوطاً صغيرة تحت الاعين
ويفرقون بين الثنيتين بسكين حتى تصير بينهما من الاعلى زاوية فارغة وكلامهم
يحاولون تطويل آذانهم

ولباسهم جلود الحيوانات الا الرؤساء والاغنياء فانهم يلبسون القطن
والاولاد يبقون عراة والصبايا تبقى صدورهن مكشوفة والرضع تحلبهم الامهات
على ظهورهن واما الحلى فيرغبون منه اللآلىء الكاذبة ولا سيما الحبراء والبيضية
الشكل الكبيرة ويعلفون في قلاندنهم خرزاً وصدفاً واسنان فرس النهر والذي
لحيته كيفية يعلق بها اولادهم . وفي اصابعهم يجعلون خواتم ضخمة من نحاس
وفي معاصمهم اساور من اسلاك نحاسية مجدولة ويعلفون ايضاً اجراساً صغيرة
من نحاس وانايب من عاج . وفي الاسفار يتوشحون بقرن جدي واذا اقاموا
يبدلون بقرن صغير فيه طلاس من بركة المنجا

ومن عاداتهم انه اذا قرب وضع المرأة تذهب الى غيضة وتلد ثم تحمل الطفل
ملفوقاً بمجد ماعز وتحمل ايضاً حمالة من الحطب وتاتي الى بيتها . ولما نتم النساء
فاذا انامت واحدة قتلتوا احد التوأمين فتعوض عنه الام بكرتيب ثلثه ونخصه
ببصيص من الفت . ومن عاداتهم في الملباث ان تركة الرجل تكون لاولاده
من أمته لان اولاده الشرعيين لهم اقرباء فلا يملونهم . ويربون الولد على رعي
المواشي فاذا بلغ السنة العاشرة من عمره سي راعياً معني فينخذ لنفسه كوخاً ويزرع
قطعة من الارض تبعاً وقد استغل

وعادة البنات ان يبقين في بيوت آباءهن الى ان يدركن سن الزواج
فيجنعن لمات كل لمة اثنتا عشرة وبينون لمن كوخاً منفرداً وهناك يعشن
على هوى النفس ويبذلن لمن يختار . فليس ثم علاقات عائلية صحيحة
وفي كل قرية مجلسان كبيران احدهما خاص بالرجال يجنعون فيه للهو
واللعب والمسامحة والآخر للنساء . ويكونان احسن وامتن بناء من سائر البيوت
وفيها النفوش والطلاس على الباب وغير ذلك من الامتيازات

الفصل الرابع

في ما جرى لبرتون وسيلك بعد ذلك

في ٥ شباط سنة ١٨٥٨ ركب الفيروان طريق الغرب قاصدين بحيرة
تغانيقا وكان برتون يشتهي ان يستقربها وفي هذه المرة وصف برتون احوال
القوافل التي تتعاطى التجارة الافريقية قال . هذه القوافل التي تجوب شرق
افريقية ثلاثة اصناف فمنهم من يكون من اهل اونيا موازي خاصة ومنهم من
العبيد المامونين والباقيون من العرب وقافلتنا من هؤلاء على الاكثر لكن
الفرق انه لم يكن معنا من اهل بيوتنا عدد يذكر . فوقت الفجر عند صباح
الديك امرت تبعتي الغوانية ان يضرمو النار فلبوا في الحال وشربنا الشاي
والقهوة (عند وجودها) واكلنا اقراصا معبولة بباء الرز ونحو ذلك وكان
الحرس حينئذ يصرفون الوقت بالغناء وهم حول خفين على نار عظيمة يتعلمون
بالقول الحمص وشرب التبغ ونحو ذلك

وبعد ساعة اخذ الحمالون ينضجرون من الرحيل وكانوا البارحة قد وعدوا
بالتشير صباحا لكن بعد حرّ النهار قرسهم البرد في الليل ولا سيما صباحا
فشكوا المحى . وكان كثيرون من النافلة اصحاب كسل وتوان وينتذون
بالترّد والعصيان فاذا اتفق ان يكون رايهم الغالب يلتزم السائح الاقامة ولا
فقد يتيسر له حملهم على الطاعة فيصيحون ويصفرون بالشبابات وينفخون

بالابواق ويقولون . هلا الرحيل . الرحيل . ارفعوا الانتقال احضروا الدواب
وهلم جراً . فياخذون في الناهب ويحمل رئيس الحمالة حملته ويرفع رايته .
وتكون من جوخ احمر قد خرقتها الاشواك وهي خاصة علامة الاتين من جهة
زنجبار

وبينا يكونون في الطريق تكون جلبتهم مرتفعة ما يبث خصومة وغناء
وصفير وتقايد اصوات الحيوانات وغير ذلك ويزيد هذه الضجة رجع الصدى
من الوهاد المناوحة للطريق . وعند الضحى اذا وجدوا فيئاً يطوي رئيس الحمالة
رايته وينفخ النفير اشارة الى الاستراحة فيضعون الاحمال . واذا استطال المسير
الى الظاهر يخفق الحرّ اولئك المساكين فيبعون

فاذا كان المساء لجأ كل منهم الى المكان الذي يختاره للمبيت ثم يشتغلون
في تهيئة الطعام فيلثم العبيد الطعام نهاماً غيباً حتى انهم ياكلون في ساعة قوت
اسبوع . والذي ينشطهم قول الداعي . الى الطعام . الى العلوقة . فيتراكضون
بحمى شديدة

وعند طلوع الفجر يضربون الطبل فيجتمع فتبان القرى المجاورة والبنات
حول المكان وياخذون في الرقص والحركات التي يفعلونها عنيفة جداً لكن
الظاهر انها لا تعبهم . وبعد ما بوثر فيهم الكلال ينطرحون على الارض لينتفسوا
نفس الراحة . ثم يجلسون فياخذون غلايينهم ويتروغون حول النار باغاني
خاصة . وبعد ذلك ينامون وقد تسهر النساء الى نصف الليل يشتغلن
وثاني يوم وصلوا الى قرية مسيى من بلاد اوسمبو التي فيها مسيرهم وفي
هذه القرية تمكث القوافل التجارية بضعة ايام فاذا تم الامطار الغزيرة ورطوبة
البلاذ حتى لم يبلغوا قرية قد شنشري الاوقد اوى المرض قوة برتوت وذاق
عذاباً اليماً من شدة الازجاع في كل جسده حتى قال انه راي الموت بعينه
ولم يستطع حراكاً وفقد الحس من رجليه فلم يكن يشعر الا بوخر الابر الكثيرة
وخدرت يده خدرأ شديداً حتى يس من الحياة وهو بعيد نحو شهرين عن

اهل الصناعة الطبية ولم ينته الى غاية رحلته . لكن بعد عشرة ايام استطاع ان
يركب حماراً وقضى في الطريق مشاق لا توصف بين الجبال والادوية والادغال
والانهار والحجر والبرد ونحو ذلك

ثم قطعوا نهر ما لاجرازي الذي يصب في البحيرة المنصودة وتخللوا غابة
وبلغوا هضبة يمتد منها النظر الى مسافة بعيدة ثم غير الدليل خط المسير فجأة
قال برون فنظرت في البعد وراء الهضاب في فجوة شاسعة خطاً لامعاً لم اميزه
لضعف بصري وما اعترض من الاشجار فسالت ما يكون هذا فقيل هذا ماء
البحيرة فاسفت اشد الاسف على هذا العناء الذي تكلفته لارى قطعة خنيرة من
الماء وعزمت على الرجوع قاصداً ان ابلغ بحيرة نيانزا لعل اسلو برويتها بعض
انعامي . لكن شددت عزمي وقلت انقدم مسافة اخرى لارى ما تكون النتيجة
فاشرفت بغتة من قمة اكمة على البحيرة المنصودة اي تنغايينا فانجلي لدي منظرها
الجليل العجيب فنزلنا في طرق متعرجة بين الهضاب المستوعرة الصلبة الى ان
بلغنا البحيرة فرايت بعض شاطئها رملياً والبعض مكسواً بالاشجار والخضرة وهي
فسحة صافية زرقاء بهجة المنظر وتظهر الجبال من ورائها كالسور المنقطع بعضها
ازرق وبعضها ملتح بلطح يضاء من الضباب وبعضها مغشى بالسحاب وتنتهي
عند الشاطئ بفارات (اي اكام منفردة) مستديرة ويدخل فيها منها راس
مستطيل ياتي من ورائه نهر ما لاجرازي ويفيض مياهه الوحابة في البحيرة . ورايت
فيها بعض جزر وحولها عدة قرى لكل قرية بساين وزروع حسنة والصيدا دون
يطوفون بقواربهم على سطوحها

ونو النبات هناك غريب واشتباك الاشجار والعشب والعرش اعجب فلو
كان في خلال ذلك ابنة حسنة وقصور وما شاكل ذلك لكان منظر تلك
البقعة من الارض اجل وابهج مناظر الدنيا . فانهج قلبي جداً بلوغي هذه البحيرة
الجائلة الشأن حتى نسيت الانعاب التي قضيتها في تلك القفار والمنافع الهائلة
وكان كل الناس مسرورين معي حينئذ حتى اخس العيد

وموقع هذه البحيرة بين الدرجة الثالثة والدرجة الثامنة من العرض الجنوبي وقرب الدرجة ٢٧ من الطول الشرقي من هاجرة غرينوتش طولها نحو ٢٠٠ ميل انكليزي وعرضها بين الثلاثين والاربعين ماؤها عذب وفيها شيء كثير من انواع السمك لذيدة الطعم وعلى شاطئها الشمالي قبائل الواويرة والوارندي وعلى الجنوبي الواغمة. ومقاطعة اوجيجي حيث وصل برتون وسبيك على شاطئها الشرقي على مسافة نحو ٥٤ ميلاً من ساحل زنزيبار ومدة السفر كانت ٢٢٢ يوماً وفي ١٤ شباط سنة ١٨٥٨ ركب برتون وسبيك وخواصهما فلكاً عربياً من قرية اوقارنجة فاجتاز بهم البحيرة في ثلاث ساعات الى قرية قاولى اكبر قرى اوجيجي فنزلوا ولفوا جمهوراً غفيراً من السودان محدقين بابصارهم الهم كانهم مندهلون ومع ذلك يضحون ضحياً غريباً ويضربون الطبول ثم نزلوا منازل الغرباء على شاطئ البحيرة فكانت الرطوبة هناك لاتوافق صحة السائحين فلم يتعافوا تماماً

وبلاد اوجيجي تحسب اخصب بقعة في ذلك القسم من افريقية لكثرة نباتاتها وشدة نموها الطبيعي وكل النباتات التي تحتاج الى شغل في غير اماكن لا يتكفنون لها هناك شيئاً وهناك كل انواع البقول والثمار الافريقية تقصد من الاطراف وهناك ايضاً انواع الحيوانات الكبيرة كالفيل وفرس النهر والتمساح والجاموس وكلها كثيرة العدد ومن الكواسر الضبع والكلاب البرية الوافرة جداً. والطيور المائية تعيش من سمك البحيرة. وتكثر الحيات والضفادع والغنارب واشمل الالبيض والاسود والعناكب وكثير من الحشرات الكريهة والهوام فتملأ المنازل حتى يكره الانسان الاقامة معها وزد على ذلك الذباب التnal للبهائم وهو الصيصى

واهل اوجيجي اشداء البنية حالكو السواد وايدهم وارجلهم عريضة جداً وحركاتهم عنيفة قاسية ونظرهم حاد وكل اطوارهم في غاية الخشونة والجفاء. والنساء يتصلن بالوفاحة ان يدخلن منازل الغرباء ويستلمن ما تنال ايديهن

ما يروق لنظرهن . وكلهم يدهنون ابدانهم بالزيت ووجوههم وشعورهم يرغونها
 بالمغرة او الحواري فيكون منظرهم من اشنع ما يتصور ويستعملون ايضا الوشم
 والروساء يجنون الثياب الملونة ياخذونها من الغرباء باي وجه كان ونساء
 الاغنياء يلبسن ثيابا زرقاء او حمراء وما الفقراء فيلبسون جلود الحيوانات البرية
 ولنسائهم منزر منسوج من لحاء الشجر . وحليم فلاندا الخرز والعاج والصدف
 واساور وخواتم فازية . والسلاح فؤوس ورماح وقسي كبيرة سهامها ضخمة ثقيلة
 والبنادق نادرة الوجود ولا تكون الا عند الروساء

ومن طعمهم الوقاحة والرقاعة والطع والنهكم على لغة الغرباء واعلمهم واذا
 خدموا الغريب خدمة حفيرة يطلبون اجرة فاحشة ولا يحترمون الضيف
 ولا يراعون جانب الانسانية ويتعودون الشر والجفاء من الصغر ويستعملون
 العض والتخيش كالهررة البرية . ويكثرون من شرب المسكرات والاطعمة
 الوخعة ولا يبالون بالنظافة

وكان حاكم قاولي شرسا مستبدا جافي الطبع فلاني برتوف وسليك منه
 خشونة عاقتهما اباما لانه منع كل احد ان يركبها فلما لا استقراء البحيرة . وفي
 تلك المدة تحسنت صحتها واخيرا اتجها في قارب الى جزيرة قيورة حيث يقم
 رجل عربي اسمه حميد بن سليمان فاعطاهما شئورا يطوفان بها

وقال سليك كانت تلك العاقبة مفيدة لصحتي لاني كنت اواظب على
 الاغسال والبتزه بالهواء الرطب مساء وصباحا . ومن عادتهم انهم يضعون في
 المكان الذي يغتسلون فيه من النهر فروعا من شجرة خاصة يغرزونها في قعر
 النهر على مسافة خمسين بردا من الشاطئ ويجعلونها كالحظيرة ويعتقدون ان
 النماذج لا تدخلها لانهم يحسبونها طائما

وكنت وقت الظهر آخذ شمسي واقصد السوق لاستبدال البضائع ونقام
 السوق من قبل الظهر ساعتين الى العصر قرب المينا . يبنون بعض اكواخ
 من اغصان وفروع تم بقوضونها كل يوم . ويبيع في السوق السمك واللحم والنبع

وزيت النخل والمسكرات والبطاطة والخرشوف والفول وقصب السكر وكثير
من البقول والعاج والعبيد

وفي ٢ اذار ركب سبيك زورقاً مصنوعاً من جذع شجرة منفور وكان
بصحبه عشرون رجلاً فنضوا اول ليلة عند الشاطئ تحت المطر الشديد
والنهار بعدها كذلك ثم قدموا على الشاطئ الغربي من البحيرة وكان الساحل
هناك مستوعراً كثير الهضاب والادغال وهي محيطة بالنقطة الشمالية من البحيرة
ومثل ذلك عند مصب النهر وهناك التماسيح وافراس الماء بكثرة كانت تنظر
اليهم نظراً جامداً وهي تنفخ حنقاً

ثم اجنازوا عرض البحيرة وبلغوا مجموع جزر قرب الشاطئ الغربي
اكبرها قبويرة تم قاسخة وفايزية وطول قبويرة خمسة اميال وعرضها ميلان
وهي كثيرة الشجر والسكان وتكثر فيها الذرة والبطاطة والطير واهلها يلبسون
جلود القرد السود والهررة وغيرها يشدونها بزناز على وسطهم ويجمعون جلد
الراس يتدلى من الامام والذنب من الورا . وهم من النطفل على اعظم جانب
فوق خشونتهم . ثم رجع سبيك ولم يتسرا لهُ استئراء الوجه الشمالي من البحيرة فعزم
برتون ان يفعل ذلك وقد سمع الناس يقولون ان نهراً كبيراً يخرج من تلك
الجهة ونتجه شمالاً وتعب جداً مع الحاكم حتى اعاره زورقين على شروط فاحشة
فكان في احدهما برتون والحاكم و٢٢ رجلاً للتجديف وفي الآخر سبيك وجماعة
من النوتية وقصدوا المضي الى سوق عبويرة في جهة الشمال الغربي من البحيرة
حيث يجزر العرب بالعاج والعبيد . فمروا على الشاطئ الشرقي الى جهة الشمال
وكان الساحل كثير الجبال والخضرة ومن مسافة الى اخرى تصب مياه السهول
الى البحيرة من فجوات الاودية النضيرة وهناك منازل حثيرة للصيادين مبنية
على شكل خلايا النخل وليس في المنزل الا الثلاث الاثاني وحصير بنام عليه
اهله . وهم يجلسون وقت الراحة في ظل الشجرة ويعلقون فيها شباكهم
وعادة النوتية هناك انهم ما داموا سائرين يلازمون الغناء والصغير وضرب

الدفوف فيكون لهم صخب مزعج ألا إذا جاش ماء البحيرة بالريح فيصننون ولا يحسنون التجذيف وأيديهم ثقيلة بحيث يقذف المجذاف الماء الى وسط الفلك فيبال رغبة وكثيراً ما اشار عليهم سبيك وعلمهم كيف يقومون حركاتهم في التجذيف ولم يبالوا وكانوا تارة يجذفون بعنف شديد حتى تسقط قوتهم وتارة يتوانون حتى كأنهم يتسلون بتعريك المجاذيف . وتارة يتصادم الفلكان فيتشامتون ويتهاثرون ويقذفون الكلام الخشن المألوف عندهم وفي فترات كثيرة كانوا يقضون الوقت للأكل والشرب والتدخين وكلما بلغوا قرية نفع بينهم الخصومة لان البعض يريدون الوقوف والبعض يطلبون الندم ويكون رئيسهم جالساً في احسن موضع من الفلك لا يقوم بأمر ولا ينهي الا نادراً . فاذا دنا الفلك من الشاطئ يتواثب النوتية من غير ان يستاذنوا . وإذا قصدوا المبيت في مكان يتفرقون بعضهم للاحتطاب وبعضهم في طلب الزاد وبعضهم يبيعون الأكواخ من اغصان الشجر وسفائف اللحاء على هيئة نصف نارنجة ويسع الواحد خمسة اشخاص الا ان ارجلهم تبتنى خارجاً . وبالاختصار لم يكن لهم في اعمالهم قانون قال برتون وفي ١٩ اذار اجتزنا البحيرة وبلغنا الساحل الشرقي من جزيرة اوبواري ثم درنا حول القسم الشمالي من البحيرة واقمنا يومين في الساحل الغربي بين الرياض والحمائل . وكنا نسمع ان الناس هناك يأكلون لحوم البشر فعلمنا ان ذلك ناتج عن شدة الفاقة والكسل في العمل وجهل الزراعة مع ان الارض شديدة الخصب فيلجأون الى اكل الجردان والزواحف والحشرات يأكلونها نيئة لشدة كسلهم وهذا يدل على انهم لا يأنفون من اكل لحم البشر نيئاً ايضاً وهم في اسفل درجة من سلم الانسانية يأكلون الجيف وجثث الموتى أكثر مما يأكلون اللحم الحي

وفي ١٦ امنه قطعنا فرعاً آخر من البحيرة وبلغنا عويرة على شاطئها الغربي فوجدنا اهلها اصحاب انس ومواساة للغريب فازدحموا علينا فرحين وسلموا بالاصوات والآلات نسلماً عظيماً فكافأهم اصحابنا بمجلة رقص وغناء في حيز

الرزانة والوقار وهكذا بلغنا آخر محطة تجارية من ذلك الفطر فراينا هناك
العاج والعبيد بكثرة يوتي بهذه البضاعة ونحوها من اواسط افريقية وتبدل
بالنخز والخياب الأوروبية . وعلنا شيئاً من الموانع التي تعترض التجار
في خرقهم ذلك الحد

وفي ٢٨ نيسان زارنا اولاد السلطان ماروثا الثلاثة وكانوا شائنا ظرفاء
اشداء ولهم رشاقة في الحركة المدنية ونظام في الهيئة والاعضاء وعميون ، راقية
واسنان كالآلىء النقية وفي اعتناهم ومعاصهم قلائد واساور من عاج فساتينهم
عن النهر العيب الذي يخرج من اعلى البحيرة فقالوا انه موجود لكن يدخل
اليها وقد راوه ووافتهم المحاضرون بشهادتهم

فتمجب برتون من ذلك وكان يظن ان ذلك النهر من جملة ينابيع النيل
واجتهد كثيراً في اقناع رفاقه لينتدوا الى ذلك الطرف من البحيرة فلم يقدروا
وقالوا انهم يخافون من آكلة لحوم البشر وخسوتهم هناك . فعادوا الى قاولى
ووصلوا في ١٢ ايار بين العوارض الشاقة . ومع ذلك افادت هذه السفرة برتون
وسبيك في صحتها وان كانت قليلة الفائدة في مقصدها . وفي ٢٦ ايار بعد
انتطاع الامطار خرجا من اوحيتي التي انبأ بها اشد العناء وقصد المسير في
طريق قازة . وبلغا ما بعد ٢٦ يوماً بين الهم والكدر من تصرف الجماعة اي
الخصومة والنور والشرود والعباد والعصيان والقلق والشغب وهم جراً
وكان من حملة من سحب الجماعة حاكم اونيا موازي وقد تاخر عنهم لانه كان
قد اشترى امة سوداء فاتفق ان جرحت رجلها في الطريق فلم تقوَ على
المسير وراى انه مضطر الى تركها فقطع راسها لئلا تكون لاحد غيره

ولما بلغوا قازة اقاموا اياماً للاستراحة ولفوا الحسنى من ضيافة العرب
ولاسيما الفاضل سناء بن امير . وكان المرض قد اصاب الجميع وعجز برتون
عن المسير واما سبيك فكان قد تعافى عند ارادة الرحيل فعزم ان يمضي
بجماعة قليلة في الجهة الشمالية من قازة ليكشف خبر بحيرة يسميها العرب نيارا

ويرة ولون انها اكبر بكثير من تنغابينا . فشخص في ١٠ تموز
وكان طريقه في خط شمالي مستقيم في نجد سليم الهواء ارتفاعه عن البحر من
٢ الى ٤ الاف قدم وفيه من المقاطعات اونيا نيني واونيا مبيوة ووامندة وسلاوى
واوسوقوما والارض هناك منها سهول ومنها جبال ومنها عور ومنها رمال
ومنها احراش ومنها مراعي وهلم جرا واهلها عديدون اشداء

وحينما صاروا في بلاد اوساجاري التفتوا بقافلة اخرى آتية من جهة البحيرة
فسلم الدليلان احدهما على الآخر تسليماً استغربه سبيك وذلك ان العادة عندهم
اذا التفت قافلتيان في طريق واحد ان يتقدم احد الدليلين الى الآخر ويتناطحان
كالكباش حتى يقع احدهما فيضج الناس ضحكاً وترفع الجلبة ويحيد عن الطريق
الفيروان الذي غلب دليله حتى يمر الفيروان الآخر

وفي بلاد مسلاله توجد مناظر طبيعية جميلة ومراعي خصبة تسرح فيها
قطعان البقر الكثيرة واهلها عدد غفير . وبلاد اوجوجو الواقعة على طريق
القاصد الى اوجيجي موصوفة ايضاً بكثرة السكان لكن يكون السودان على
جانب الطريق مزدحمين ازدحاماً عظيماً حتى لا يمر ابناء السبيل الا بجهد لكثرة
تظلمهم وذلك لانهم قلما يرون رجلاً ابيض فيدهشون لرؤية من يمر من هناك
من البيض

قال سبيك ولما فارقنا قرية من مقاطعة سلاوى في ٢٧ تموز راينا بغلة
عموداً من الصخر الجبوبي شديد الارتفاع وعند اسفله قطع عظيمة من الصخور
فتمحبت من هذا المنظر الطبيعي وكيف وجد بهذه الهيئة في تلك الاقطار . وبعد
ان سرنا ثمانية اميال رايت عموداً آخر اعلى من الاول يتجاوز كل الاشجار المحيطة
به . وقد اتخذنا هذين العمودين دليلاً اميناً الى مسافة شاسعة من الطريق
لانهما يشاهدان من بعد ثمانية اميال

ولم يزالوا يتقدمون في تلك البلاد الخصبة النظرة الشائنة المناظر الكثيرة
السكان والخيرات عدة ايام وفي ٢ آب تجاوزوا قرية ايساميرو وبلغوا هضبة

سماها سبيك سرست

قال فلما رقبنا قمتها وقع نظري على بحيرة نيانزا الفسيحة الجوانب الجميلة المنظر
ولشدة بعد الافق لم اقدر ان اقدر سعتها ولم ارا ايضاً طرفها عن شمالي لاعتراض
مجموع جزر شامخة سميتها ارخيل بنغال ارتفاعها عن سطح البحيرة من ٢٠٠ الى
٢٠٠ قدم واما عن يميني فليس الا جزيرة اويربوي تكون آخر ما يعترض
النظر من جهة الشمال الغربي فهذه الجزيرة وجزيرة مزينة البعيدة عنها نحو ثلاثين
ميلاً تظهر انهما الساحل الشمالي من الفرع الشرقي من البحيرة وكنا نعرف اسم
الاولى لان العرب ذكروا لنا البحيرة باسمها والثانية اكبر منها وشكلها كظهر
الخنزير. والشجر يكثر في كل تلك الجزائر وتظهر قطع الصخور بين الادغال
كالبحوم وتنعكس صورة كل ذلك في ماء البحيرة الصافي فليس اجمل من تلك
المناظر الانيقة

ورابت السهل العظيم تحت الهضبة التي كما عليها منفرشاً بالخمائل والحدائق
والقرى منورة فيه بين البساتين النضيرة والخرق بينها كماها الماشي في روضة
لندن. واول قرية بلغناها قرية موانزة وكانت غاية سمرنا وهي في مرج كبير
الزروع حسن الملاحة

ولكن كل تلك اللذة الطبيعية الحسية لم تقارب لذة فكري بشأن الفائدة
الجغرافية والتجارية التي طالما اجتهد الناس في الحصول عليها اي تصوري ان
هذه البحيرة هي ينبوع النهر العجيب (اي النيل. لان سبيك حاول اظهار
كون النيل الابيض ينشق من هذه البحيرة الكبيرة التي اكتشفها)

ولكن لسوء حظ هذا الرجل وحظ العلماء حينئذ لم يصادف انساناً ولا مؤساة
من حاكم قرية موانزة لجهة طواف البحيرة نعم انه احسن لقاء لكن لم ياذن له
ان يركب فلكاً ويدخل جزيرة اويربوي ولا التطواف في قسم من البحيرة
فاضطار ان يكتفي بتقريبات الاهالي وتجار العرب. فذكروا له ان البحيرة تمتد
شالاً الى مسافة شاسعة جداً حتى قالوا لانهاية لها ويخرج منها نهر اسمه فيروبرا

يمجري على الصخور جرياً شديداً متجهاً الى النيل فاستنخ سبيك ان هذا النهر هو عين النيل والصحيح انه لم يصب في رايه . وان على شاطئها من جهة الشرق بلاداً لا تعرف ارضها ولا اهلها . ومن جهة الغرب تتواصل الجبال التي تنصب مياهها الى بحيرة تنغانيقا شمالاً والنوافل العربية التي تسير من قازة لتعبر في مملكة قراغوة واجندة تمر في بلاد ذات هضاب ووهاد وافرة الزرع والضرع تشهها انهار كثيرة وتنصب في بحيرة نيانزا

ومملكة قراغوة كثيرة الرطوبة والامطار فيها فصلان وتسطن فيها ريحان كما في اونيا موازي الاولى مزدوجة شمالية وشمالية شرقية واسمها عندهم قسفا سي . والثانية جنوبية تصحبها الامطار الغزيرة واسمها قوشي ويكثر معها الرعد والبرق ويباشرون الزرع في اول وقوع المطر كما يفعلون في مسيني واوجيبي يعزقون اولاً الارض الى عمق بعيد ويزرعونها ذرة صفراء وجاوساً وغير حبوب واما الرز فلا يعرفونه واكثر زرعهم الذرة ويزرعون ايضاً نوعاً من البن البري اسمه موامي ويكون مرّاً حفيظ اللبث . والنول ايضاً صغير الحب جداً . وهذا البن لا يستعملونه استعمال العرب للتهوة بل يطرحون منه قبضة في الماء العالي ويشربونه اذا انخل منه جوهره . ويقول العرب هناك انه مهيج جداً ومرطب وطعمه قريب من طعم فول مخفا .

والبقر عندهم لها سنام صغير وقرون كبيرة كما في اوجيبي وعويرة ويعدون بها بحساب الثيران الواحد منها بمقابلة مائة بقرة وكان للسلطان حينئذ ٢٠٠ ثور عبارة عن عشرين الف بقرة . والماشية اساس ثروة الاهالي واكثر طعام الاغنياء لبن البقر مزوجاً بعسل الجبال

وتسالي قراغوة بعد اجنياز نهر قانتيجا يصل المسافر الى قرية قيبوجا قاعدة مملكة اوجندة وفيها مقام الحاكم وهي محط رجال العرب الاتين من قازة نحو الشمال . ويقولون ان هذه البلدة اي قيبوجا مسيرة يوم طويلاً ومنازلها مبنية من الفصب والفتنا . وطول دار السلطان كيلومتران مولفة من اكواخ مستديرة

مصنوفة صفوفاً وامامها سور من الاوتاد له اربعة ابواب على كل باب جرس يدق عند قدوم الاجانب وعليها مئات من جنود الحرس عليهم اربعة رؤساء يبدلون كل يومين ويبيتون الليل تحت الطُرف اي الخيام من الاديم ينتظرون امر الملك ويبدلون حياتهم في خدمته

والحرم مولف من ثلاثة الاف شخص بين نساء واماء واولاد ولا يحسر احد ان يتجاوز البرزة وهي قاعة الملك للاستقبال واجراء الاحكام والنظر في الهدايا. قيل وكثيراً ما تحرق الصاعقة منازل الملك فيلزم الجنود ان يطفئوا النار باجسادهم ينظرون وينقلبون عليها حتى تخمد. وعدد الجيش لا يكون اقل من ثلثمائة الف واذا عرض يجب ان كل جندي يقدم بيضة. ولكل منهم رمح وحرثان ومزراق وترس وليس هناك سيوف ولا قسي

واذا مشى العسكر للحرب تبعته النساء والاولاد بالزاد والماء والسلاح. واذا اشتبك القتال يضربون الطبول ضرباً مستمراً فحالمات ينقطع صوتها بنهزمون ولا يزال اهل اوجندة في الفتن مع جيرانهم الوايورو والواسوجة وغيرهم واذا خمدت نار الحرب مدة يحاول الملك وجود علة ليكنتم بعض البلاد ويعبث وينهب ويقتل ويأسر حتى يملأ خزائنه من الغنائم. ويكثرون من التل صبراً حتى تكون ايام يقتل فيها كل دفعة عشرون شخصاً معاً

وكثيراً ما يخرج الملك للصيد ويلزم جنوده ان يقتلوا الوحوش بلا سلاح ويغلقوا القيل بكثرة العدد فقط واذا دخل قرية يصيح صيحة فيجيبها اهله باصوات النفير والشبابات ونحوها من الآلات

واآخر ملك على عهد برنون وسبيك كان يقال له سنة مات سنة ١٨٥٧ كان يكثر من عرض عساكره الحرارة ويحلب على باب بلاطه ويده اليه حربة وبالسرى سبر مربوط فيه كلب ضخم الجثة وكان يحب صراع جنوده فلا يزالون يتصارعون حتى يقتل بعضهم. وكان يخذ حظيرة يزرب فيها السباع والذئبة فاذا حكم على احد بالاعدام يطرحه لديها فتمزقه وتترسه. وكان يحب

كل ما فيه غرابة

ويقول العرب انه كان احمر قوي البنية مهيب المنظر يخلق رأسه ويرخي ذوابة ينظم فيها الخرز واللؤلؤ ونحو ذلك . ولا يسمع بذلك لغيره . ومن ماموري بلاط الشحنة بتصرف في امور البلد ويسود على اصحاب الولايات ومنهم القائد الاعظم تحت امرته جنود المحرس والعبيد والعسكر وبناء البلاط والقضاء في العاصمة بيد الملك وفي الولايات بيد نوابه . والنصاص عندهم غرامة او قتل ليس الا . والذي يحكم بقتله اما ان يضربوا عنقه او يحرقوه او يسلقوا جلده حياً . واذا فرّاحا المجريين تخرب قرية كلها ويذبح رجالها ونقتل نساؤها

وليس لاهل تلك البلاد شيء من الفطنة والفهم وانفق يوماً لسبيك انه جعل يسأل احدهم عن امور بسيطة كاسماء الاعداد والبلاد ونحو ذلك فنضى العذاب من قلة فهمه وخشونة طبعه وذلك يظهر مما يأتي

قال اردت يوماً ان استفهم عن هذه الامور فكان الكل يفرّون مني او ينفون كأنهم صم بكم فسالت واحداً عن اسماء الاعداد في لغتهم وقلت له اسمع يا اخي نحن نسمي الاشياء بلغة الساحل بحسب ترتيبها هكذا واحد اثنان ثلاثة الخ وجعلت اشير باصبعي الى بعض اشياء موضوعة بترتيب لعلة يفهم ما اسأله فكان يقول لي . هو هو . نحن نقول اصبع . ففيل له ما هذا ما يسالك الرجل الايض بل يريد ان يعرف ما تسمون الواحد والاثنين الخ فيقول واحد اثنان ثلاثة اي شيء . من الغنم المعزى ام النساء فقال الترجمان اي شيء كان ليكن فالمراد ان نعرف كيف نقول واحد اثنان ثلاثة بلغة وابوقا . فقال هي هي . وما يريد الرجل الايض من الوابوقة . وهكذا بقينا مدة لانعرف ان نفهم المراد لشدة غباوتهم

وفي ٢٥ آب رجع سبيك من رحلته وقابل برتون واخبره انه رأى منبع النيل فلم يصدق وطال الجدل بينهما حتى قصدا الذهاب معاً ليتحققا الامر

فجهزا قبراً وأنا وسافرا وقضيا مشقات كثيرة وهرب كثير من العبيد وزاد تشكي
الحمالين وتمردهم واصابت الحمى سبيك في قرية حنجة لشدة برودة الهواء الشرقي
وصمت احدى اذنيه والنهبت احدى عينيه وانتفخ وجهه واستولت الالوجاع على
جسده وكانت النوب شديدة جداً حتى خيل انه جن وتغير جداً حتى قيل
انه لا يعيش وبقي بضعة اسابيع حتى تعافى شيئاً

ففي ١٢ تشرين الاول خرجوا من حنجة التي كانت نجساً على سبيك ليرجعوا
الى الساحل وكان ذلك خاتمة هذه الرحلة المهمة فمضوا من اوجوجوا الى زنجوميرو
في ١٩ كانون الاول وفي ٤ اذار سنة ١٨٥٩ دخل برتون زنجبار ومنها
مضى في ٢٢ اذار الى عدن ورجع الى اوروبا . واما سبيك فبلغ انكلترا ولم
يشف غليظه فكتب رحلته ورجع ثانية لاكتشاف بحيرة نيانزا وينابيع النيل .
وهكذا كانت رحلة برتون وسبيك من اجل الرحلات شأناً واعظمها فائدة



الباب الثالث

في البحث عن ينابيع النيل الابيض



الفصل الاول

اهمية هذه المسألة - - النهر الابيض - - خرطوم الرحلات المصرية
- برون رولى - - التجار والمرسلون

اشرنا في القسم الاول من هذا الكتاب اشارة خفيفة الى اهمية المسألة المتعلقة
باكتشاف ينابيع النيل . وفي هذا الباب راينا ان نشرحها شرحاً مستوفياً . فنقول
ان هذه المسألة قد شغلت خواطر العلماء منذ اكثر من عشرين قرناً غير ان
البحث جرى فيها بجد ونشاط منذ نحو نصف قرن
وكان هيرودوتس المورخ اول من تكلم فيها ثم بينها بطليموس بعض
البيان واشتغل بها قيصر الروماني وجغرافيو العرب والبرتوغال فكبرت عن
مقدرة البشر وزادت اهمية في خلال الاعصر الماضية . وقد سفكت دماء كثيرة
وهلك في شأنها جمع غفير من المغررين بانفسهم ومع ذلك لم يضعف عزم اولي
المسألة ومحبي المعارف فبدلوا الجهد وخطروا بالنفوس والمال وما اشكوا حتى
جلوها في السنين المتأخرة

فهذا النهر العظيم الجليل الشان هو السبيل الوحيد لسلوك القندس في
اقطار افرقية الوسطى . فيه انصل المرسلون الكاثوليك الى قرب خط الاستواء
وبواسطته عرفت القبائل الكثيرة البربرية وعوائدهم واخلاقهم واعمالهم وهم
جرأ وقد وجد الباحثون السابقون بتقدمهم في البلاد ان النيل مجاري كثيرة
تنضم اليه من اكثر جهات افرقية الوسطى بعضها ينحدر من بلاد الحبشة
الجبيلة وبعضها يشق الفيافي جنوبي دارفور والنهر نفسه يتقدم كثيراً نحو الجنوب
وهذه الجداول المذكورة وسيلة للاتصالات التجارية في تلك الانحاء . ومن اخص
اصناف تلك التجارة العاج والصغ وحاصلات الاقطار المدارية وكلها تفيض
فيضاً على السودان ومصر . وكل بقعة اكتشفت على ضفاف النيل كانت واسطة
نجاح عظيم للتجارة حتى اذا قام بها الناس حتى القيام تكون من اكبر وسائل
النجاح الادبي والمادي عند تلك الامم . وقال سيك اذا كان النيل ينشق حقيقة
من البحيرات الكبيرة التي يكثر في انحاءها الفطن والنيل وقصب السكر والبن
والتبغ والماشية الوفيرة من بقر وغنم وغير ذلك فلا بد ان السياحة في المستقبل
في تلك الاقطار تاتي بفوائد جمة

والنيل اصلان عظيمان كما هو معروف الآن يجتمعان في الدرجة ١٥
والدقيقة ٣٠ من العرض الشمالي فالشرقي منها يقال له البحر الازرق وهو
معروف معرفة جيدة ينحدر من جبال الحبشة وينزل بشلالات كثيرة الى سهول
السودان الشرقية فيلقي بالمجرى الجنوبي وهو النيل الابيض . وكان الاوروبيون
لا يعرفون عنه شيئاً حتى سنة ١٨٤٠

وكان العلامة روس قد وصل الى منابع النيل الازرق سنة ١٧٧٠
ووصفها وصفاً مدققاً لكن سبته الى ذلك راهبان برتوغاليان اسم احدهما بايز
والآخر لوبو . فاراد بروس ان يحص نفسه دونها بفضل هذا الاكتشاف
وطعن فيها وافسدا ما كتباه ونسب كل شيء صحيح الى نفسه لكن ظهر الحق بعد
ذلك وعرف ان الفضل كان للبايز

وعلى ملتقى النيل الأزرق والنيل الأبيض قائمة مدينة الخرطوم . وينفرض
النهر بعدها حتى يكون كالبحر الراكد يشقّ عن زرقة الجوّ وأشجار ضفتيه
وإذا كان موقع الخرطوم أجل مواقع المدن السودانية والنيلية كانت أهميتها
التجارية تدعو الى ازدحام الاقدام بها فيوتى اليها بالنيل الأزرق بمجاصلات
سنار والحبشة وكردفان وغيرها وبالنيل الأبيض بمجاصلات افرقية الاستوائية
فتكون السفن عندها مائة النهر في مسافة اربعة كيلومترات ومنها نوع يقال
لها الذهبيات وهي كبيرة بيضاء الفلوع تفيض بها العاج وقرون الكركدن
والصمغ والقطن ورمل الذهب والسنا والاختشاب الثمينة وريش النعام وجلود
البقر والذرة والعبيد . فترى من الناس هناك اشكالاً واللواتا بين سودان
وعرب وافرنج ومصريين على اختلاف ازيائهم وهيتاتهم . وحول المدينة على
النهر يساتين نضرة سابعة الظلال كثيرة الاطيار طيبة الثمار بين عنب وتين
وليمون وغير ذلك وفي النهر هناك جزر صغيرة يزرعون فيها الفاوون
والبطيخ ونحوها

وفي الخرطوم جهزت الجريدة الاولى المصرية بامر محمد علي باشا فرحلت
الى جهة الجنوب في ١٦ تشرين الاول سنة ١٨٣٩ . وكانت مولفة من اربعمائة
رجل من العسكر المصري المقيم في سهار . فركبوا من السفن خمس ذهبيات
كبيرة ارسلت من مصر وثلاثاً اخر اخذت من النيل الأزرق وخمسة عشر
زورقاً فيها الذخيرة ولم يكن معهم من الاوروبيين الا رجل واحد كانت الرحلة
مخصوصة به واسم تيوفلم يصادفوا نجاحاً ولا اتي هو بفوائد جغرافية تستحق
الذكر . لانهم سافروا في ايام شديدة الحرّ وتكلفوا مصاريف فاحشة فاضطروا
الى الرجوع قبل بلوغ الدرجة السادسة من العرض . لكن عرفوا بهذه الرحلة
جهة مجرى النهر والاقطار التي يسفها . وذكر بعض مقدميهم انه اجتاز بلاداً
قليلة الجبال ترى فيها نارة غياض كبيرة ونارة سهول فسيحة منقعية كثيرة النصب
والاعشاب العالية . وعلى ضفتي النهر في تلك البلاد قرى مختلفة المنازل

باختلاف القبائل . وبعض اولئك القبائل اصحاب طمع وحرص وتمرد
وخبت كالشلق والتور والبعض اصحاب دعة وسكينة ومواساة للغرباء

وكان الجنود المصريون حينئذ يحفرون السودان لدناءتهم وحقارتهم
فاسأوا التصرف معهم وظلمهم وجاروا عليهم في ما يملكون حتى تمنع المساكين
بعد ذلك من مواصلة البيض حذراً من مثل هذه الاساءات . قال نيبو في
ذات يوم اتانا هؤلاء القوم يلجم كثير وتبعونا ومعهم رماح وسهام وكان بعضهم
يرقص فقال اثرجمان ان لم نوايا شريفة فكان قوله كافياً لان يبدل فيهم
السيف ويطلق عليهم الرصاص فقتل كثيرون وفرت شردمة قليلة الى القرى
المجاورة ففتك العسكر في اهل القرى وغاص كثيرون منهم في بحيرة هناك
فرمواهم بالرصاص حتى استحال الماء دمًا وغشي سطح البحيرة عدد وافر من الجثث
وفي ٥ شباط خرج اثرجمان ببندقيتيه للصيد فرأى رجلاً ومعه ابنان له
عمر الواحد نحو عشر سنوات والاخر اثنا عشرة وكانوا يعجبون الدنو من
الزوارق . فصاح بهم الجندي فما اجابوا فاسرع المخطي حتى ادركهم فقتل الاب
واسر الولدين وهما بنوحان

وفي ٢٢ منه رأى بعض الجنود رجلاً وامرأتين حاملين على رؤوسهم مزاد
فدنوا منهم وقتلوا الرجل وسبوا المرأتين

وبعد هذه الرحلة جهزت جريدة اخرى لاكتشاف ينابيع النيل وكان
فيها جماعة من الاوروبيين من جعلتهم ارنود وسباني وورن وهم الذين كتبوا
التقارير الواقية عن تلك الرحلة . فصعدوا النيل الابيض في ٢٢ تشرين الثاني
سنة ١٨٤٠ باحد عشر فلكتاً كبيراً وقطعوا مسافة ٢٢٠ ميلاً متراً وبلغوا بلاد
باروشيري الى الدرجة الخامسة من العرض الشمالي . فارفعت الارض هناك
وتغيرت المناظر وكانت الادغال كثيفة على ضفتي النهر والارض كثيرة الهضاب
والسهول والبروج والقرى . فكان الاهالي هناك متمردين لكن احسنوا الى
الجماعة وقدموا لهم لحماً وعاجاً وذرة ونوعاً من الشراب يعسونه جابا (اعلمها الجمعة)

واما الباري هذه طوال القامات ضخام الاجسام لا يلبسون شيئاً من اللباس
يدّهنون بالمغرة ويلبسون حلى العاج والحديد الا ان زعيمهم يلبس قميصاً من
الحمام الازرق . وهذا دليل على ان لهم اتصالية وراء الجبال الشرقية مع تجار
العرب الآتين من ساحل زنجبار

وكان الاهالي لما راوا الغرباء قد صاحوا ونفخوا بقرون بقر الوحش
فاقبل زعيمهم المذكور وهو يهز رأسه وعليه عنكولة كبيرة من ريش النعام وصار
يرقص والجماعة حوله يفعلون فعله وهم يصيحون . ثم نزل الفلك لا يرهب منكراً
واخذ ابدي رؤساء الجند وكان بعض اطراف اصابعهم علامة الاحترام ثم طلب
اليهم ان يقدموا له شيئاً من الخف على سبيل التكرمة فقدموا له ثياباً حمراء
ولآلىء كاذبة مختلفة الالوان وجرساً صغيراً كاد يطير سروراً برديده رننه
واطعموه شيئاً من التمر واجلسوه على طنفسة فلما ارتحل اخذ الطنفسة في جملة ما
اخذ منهم ولم يمنعوه . وارادوا ان يتولى سيرهم في النهر الى ما وراء الجبال فاعترضتهم
في مجراه صخور كبيرة شامخة لا يركب النهر بينها فرجعوا

ثم كانت رحلة انطون و أرزود ابادي سنة ١٨٤٦ الى جنوب الحبشة
فانجلبت بها غوامض كثيرة وبعد ذلك حصلت وسائط كثيرة انضمت بها هذا
السر شيئاً فشيئاً فعرف نلاع النيل الايض لكن لم تكشف منابعه معرفة مفردة
وظهر سهلاً المسير فيه الى قلب البلاد المار ذكرها الكثيرة الخصب الوفرة
الحيوانات . فانتدت غيرة المسيحيين ونهضت بالتجار همهم وصارت تلك البلاد
نقطة ارتحال لجماعات كثيرة من مبشرين وتجار

وكان من مشاهير التجار الذين اول من اتفحموا تلك المخاطر برون
رولى فاتي عن احوال البلاد بفوائد جلية وفي رحلته تفاصيل كثيرة تنبئ عن
احوال الامم المجاورة للنيل الايض وقضى في استقراءاته مشاق كثيرة

وسنة ١٨٤٩ انشئ مركز تبشير للكاتوليك في مدينة خرطوم وعزمت لجنته
ان تقدم بالتبشير الى الدرجة الخامسة من العرض اي قرب خط الاستواء

فبلغت غندوكورو وهي المحطة الاخيرة التجارية على النيل الابيض الى جهة الجنوب . ووصل واحد منهم الى جزيرة في مجرى النهر فيها جبل شامخ كأنه هرم كبير الشجر فرقى قمته واستشرف مجرى النهر فراه الى مسافة بعيدة تارة يتحدر من شلالات مستوعرة وتارة يتخلل الفيافي والقرى الى ان ينتهي صاعداً بتعريج بين الجبال القائمة في الافق . وبالاختصار فقد افاد العلماء اولئك المبشرون فوائد جمة بشأن الاقطار النيلية وانشأوا مركزاً آخر عند الدرجة السابعة من العرض . فبناءً على تفريراتهم واخبار السياح من التجار نصف في الفصل التالي الهيئة العمومية الجغرافية لاقطار النيل وخصائصه وعادات الامم هناك

الفصل الثاني

امة الشلوق - بحيرة النوء والنور - بلاد الفطشة - النبات والحيوان
فرس الماء - صيد النيل - عادات واخلاق الدنقة - الحيات

النيل الابيض ياتي من فوق خرطوم من الشمال الى الجنوب وطول مجراه اكثر من ثمانمائة كيلومتر وهو عريض جداً بمجئوي على عدة جزر يعلو الماء فوق كثير منها ايام الفيض . والنباتات كثيرة جداً في الجزر المذكورة وعلى الضفتين والغابات متسعة جداً مختلفة الازهار والثمار وتكثر فيها التروود والطيور بانواعها والحيوانات البرية . والجزر والضفة الشمالية من النهر ملجأ للقبائل البربرية ولا سيما الشلوق وهم عبيد لصوص محنلون قساة جفاة عناة يركبون

قوارب تسيرهم كالسهم وينقطعون الطرقات ويغزون القبائل المجاورة لارضهم
وياخذون كثيراً من مواشيهم . فانهم يراقبون العرب المجاورين ليعرفوا اين
يوردون ماشيتهم فاذا عرفوا يجتمعون في نحو اربعين قارباً ويسبرون ليلاً
على الضفة الاخرى من النهر فلا يراهم العرب . فاذا بلغوا مورد الماشية يخفون
قواربهم بين الاشجار وفي اخوار الجزر ويمكثون كامنين حتى ترد الماشية
فيتمضون عليها بقواربهم وينزلون الى الشاطئ فيقتلون او يطرودون رعايها
اذا وجدوهم شرذمة قليلة ويسلبون الماشية ويرجعون قبل ان يصل الخبر الى
القبيلة . وقد يحدث ان العرب يندرون بهم قبل هجومهم فيكمنون لهم على ضفة
النهر وعندما ينزلون الى البر يتمضون عليهم وياخذونهم عبيداً

ومنازل الشلوق ممتدة سلسلة طويلة على الضفة الغربية الى مسافة بعيدة
جداً حتى لا يحصى عدد سكانها لكثرتهم وتفرقهم . وليس على ضفاف النيل
الابيض قبيلة غيرهم لها زعيم واحد تخضع له . يكون مقامه في دناب ومنازله تبلغ
المئة شكها هرمي . والسيادة اراثية في عائلته لكن ليس ابنه الذي يخلفه بل ادنى
اقارب اول عمل يعمل خليفته الاحتمال دفن جنته لان الشريعة عندهم ان
جثة الملك المتوفي تبقى في بيت خاص الى ان ياتي الخليفة فيدفنها

والملك مستقل مستبد في سلطته ويستولي على اولاد المجرمين ونساءهم
وتجارة العاج بيده وحده ولا يدنو منه احد الا زاحماً وفي يده شيء من الخف
وهيئة الشلوق قبيحة جداً تؤذن بالنوحش ولا يلبسون لباساً الا النساء
فيلبسن ما زر من جلود الحيوانات يسمى عندهم الرشاط . والشبان يبالغون في
ترزين ابدانهم فيرسلون شعرهم حتى يطول جداً ويجدلونه ويلفونه على رؤوسهم
كالعمامة . وبعضهم يضع شيئاً كالشط من الفنا الى الجبهة يلفون عليه شعرهم
ومنهم من يضع دائرة من ريش ابيض حول راسه على شكل الاكليل . ويجعلون
في معاصمهم اساور من عاج يصنعونها بايديهم . ومن طبيعهم العتق والاستبداد
يشغلون بالزراعة وتربية الماشية ولا يفتنون لحكم اجنبي . لكن يسهل عليهم

ان يشتروا الحلى النحاسية بمواشيهم

والصفة التي من النهر تمتد بسهل فسيح الاطراف فيه بعض اكام منفردة
شامخة والسكان هناك لفيف من ارومة قديمة كثيرة الفروع منها امة في اعالي
مجرى النهر تسمى الدنفة

وفوق الدرجة العاشرة ينعطف النهر غرباً بعد ان ينصب اليه نهر كبير
يقال له صوبة لا يعرف اصله وكثيراً ما ركبه تجار العاج ورمل الذهب من
اهل خرطوم وفوق هذا النهر بنحو عشرين فرسخاً يخرج النيل من بحيرة لم يضبط
تعيين حدودها يقال لها بحيرة النوء تصير في ايام الحر غديراً محاطاً بمناقع وفي
ايام الفيضان تنسع فتشغل مساحة كبيرة جداً . وفي هذه البحيرة ينصب نهر غير
معروف تماماً يسمى الجغرافيون باسماء كثيرة كبحر الغزال ومصلات وقيلقو وبحر
العدى وهو يجري غرباً ثم شمالاً ثم جنوب غرب ويظهر بالتفتيحه انه آت من
جهة الجنوب كالنيل الايض . وبين نهر صوبة وبحر الغزال يسقي النيل بلاد
النور ويختلف منظره اختلافاً عظيماً بين خصب الارض وجديها وعامر وغامر
حتى يظهر ماء النهر اسود راكداً مغطى بالنيلوفر تنتشر منه روائح تنه وتكون
الغابات بعيدة عنه فلا ترى على مد البصر الا سهول مكسوة بعشب مرتفع
والمناقع على الضفتين كثيرة الفصياء وبينها بعض اشجار . وتجر الانهر الى بحيرة
النوء احوالاً كثيرة فلا تحد شطوطها وتتصل الاماكن العميقة منها بالسهول المجاورة
بمناقع عظيمة لا يمكن للانسان ان يضع فيها قدمه و باختلاف الفصول تخف
بعض البقاع وتكون في بعضها قيعان مخصصة . ويكثر هناك البعوض كثرة عجيبة
فيشتد اذاها على السباح في فصل الشتاء وعند غياب الشمس تهجم جيوشها الجرارة
على السفن فيختبئ منها الناس تحت استار الكالكال (اي الناموسيات) واذا
حلك الظلام يرى الحباحب (اي سراج الليل) كثيراً جداً . واما في الصيف
فلا يبقى للبعوض اثر لنضوب المياه المستنفعة التي يتولد منها لكن يظهر في الليل
منظر غريب بحر من النيران يتلاطم بالرياح فيختلل الاعشاب الكبيرة المجافة

بحرارة الشمس وبحرقها بما فيها من الحشرات والزواحف . يضرها الاهالي قصداً
لتنظيف الارض وينبت حشيش جديد ترعاه المواشي . وايضاً لكي تنفر الوحوش
من هناك

ومنازل النور على شواطئ البحيرة وعلى ضفتي خليج يقال له بحر الزرافة
وتتصل ايضاً بنهر صوبة حيث كانت منازل الدقة فطردوهم . وهم اشداء
شجعان ترهبهم القبائل المجاورة لهم من السودان . وشغلهم الفلاحة وزراعة الذرة
ومنظرهم يوذن بالهبة ونقاطيعهم معتدلة لهم ملائح الاوروبيين تقريباً . ويلبسون
على رؤوسهم قبعاً مخروطي الشكل يغشى بالاصداغ والحرز وفي عنقهم قلادة
من الحرز ايضاً ويطرحون على اكفانهم جلد نمر ويتنطقون بمطقة يعلنون
فيها حلقاً وفي معاصمهم اساور من قطع عاج رقيقة حادة . ويرسلون شعرهم
ويطلونه بطلاء احمر يمنع اموتته للزوجته ويجعله سبطاً وهذا الطلاء يولف غالباً
من رماد وروث البقر والبول يخلط بمغرة ليكون احمر فيضعونه على الشعر
ويتركونه حولاً كاملاً ثم يحدونه والنساء يضعن مئزراً من جلد وطوقاً من
جلد ايضاً واساور من خرز وخلاخيل من نحاس او عاج . والصبايا يلبسن
مئزراً من ورق الشجر ويتفنن الشفة العليا ويغرزن فيها ناب حيوان بطول
الاصبع مرصعة بمخز خرز ازرق وفي راسها لؤلؤة بيضاء . وهذه العادة تزيد شيوعاً
كلما تقدمت الى جهة الغرب

ويخترق النيل من حد مصبه في بحيرة النوء الى نحو ثلاث درجات فوق
البحيرة بلاداً منخفضة منفعية وهو فيها كثير العطافات ضيق الجري ويسميه الاهالي
هناك باسم قبر . وعلى ضفتيه من القسم الاسفل كثير من النصباء والحلفاء والبردي
وغير ذلك من النباتات المرتفعة حتى يخفي بينها الجاموس ويتألف منه في عدة
اماكن غدران واخوار ينمو حولها شجر السدر . وعلى مسافة من الجري ترتفع
الاراضي ويكثر الشجر وينقطع النصب ونحوه من الأسفل وتكثر النباتات المتعرشة
وتتكاثر جداً حول جذوع الاشجار الكبيرة حتى يصعب جداً تتبع طرق

الوحش بينها . ومن انواع تلك الاشجار الدلب والبواباب والفريون والسام
والابنوس وشجرة السمن والتبر هندي وشجرة الصمغ المر وكثير غيرها من الاشجار
المافعة . ومن الاشجار الصغيرة الفطن والكرم وغيرها

ولكثرة الغياض وغزارة الماء وانساع البقاع وقلة السكان تكثر الوحوش
كثرة عظيمة تفيض بها مياه النهر والمستنعات والاحراش انواعا وافرة .
والسبك في النهر كثير ايضا ومن جملة انواعه الرعاد المشهور والسلاحف الضخمة
واكثر طعام الاهالي من صيد السبك . وفيه ايضا فرس الماء والتساح وهم
بخافونه جدا حتى انهم يطرحون له عتزا كلما قطعوا النهر . وفي القصباء تكثر
الحبات والورل وغيرها من انواع الزواحف . ومن الطيور النسر الصياد
يصح احيانا صيحا غريبا . والنعام والحبارى وديك البر والوز والكركي ودجاج
فرعون والدط وانواع طيور الماء . ووحش القنص ايضا انواع كثيرة

ومن الحيوانات الكبيرة الاسد وهو هناك كاسر جدا يفنك فتكنا شديدا
ويهمج على الانسان في منزله ويغطي اليه السياج المرتفع وبزيمجر زحمة مخيفة
جدا طالما اقلقت السياح في جوف الليل ومنه نوع يقنص البقر الوحشي والاهلي .
ومنها النمر والفهد والضبع والهر البري وكثيرا ما تسطو على الماشية لكن تهرب
من الانسان . والفيل كثير جدا يكون قطعانا عديدة يصح صيحا مزعجا
ويتلف شيئا كثيرا من النباتات الصغيرة والكبيرة ويقتلع الاشجار بخرطوم .
ومنذ سنتين كثر صيده فقل عدده شيئا وتحصل من عاجه كميات وافرة
ويقتلونه بالرصاص غالبا والسودان يحفرون في طريقه حفرا عميقة يسترونها
باغصان الشجر فاذا مر سقط فيقتلونه طعنا بالرماح والعرب المجاورون للشاوق
يصطادونه بالرماح على الخيل . يخرجون اليه اثنين اثنين الى ستة ستة فيطار دونه
ويدورون حوله في دائرة متسعة يضيفونها بالتدرج حتى يقتربوا منه فينزل
واحد منهم من ورائه وهو ملته برفاقه ويطعنه بالرمح في بطنه فيشقه فيطفر
وينعطف اليه فياتي الآخرون ويشبعونه طعنا من الورا فيسقط صريعا .

وخيل هؤلاء العرب تسابق الرياح ولا يفارق النرس فارسه ولو بقي وحده
وتحنق الخطر. وقد يكرون على النبل عدة مرار وهم يطعنونه حتى يتزف دمه
وأكثر فوزهم بصيد النبل في السهول وأوقات الحر والجفاف ولما يتجشون بين
الادغال والمناقع

والسودان يصطادون أيضاً الزرافة وتكون اسراباً كثيرة في المروج
ويصطادون الكركدن والجاموس على شدتها وضرائها

ووفرة فرس الماء في ذلك النهر ما يفوت حد التصديق فمن بحيرة النوء
الى بلاد باري لاتزال قطعانه ترى كل قطعان مؤلف من نحو خمسين فرساً
وهو غير كاسر لكن شديد الحذر لا يزال برفع راسه فوق الماء وينظر يمينا
وسمالاته يغوص. وترى كميات منه في النهار تلعب وتوثب على الشاطئ بطماينة
فاذا رات سفينة توثبت الى الماء وغاصت وهي تزجر حقاً. وإذا كان الليل
تسمع لها أيضاً زججة شديدة تدوي لها القيعان والادغال ثم تجتمع وتخرج الى
البر لترعى فاذا دخلت ارضاً مزروعة ذرة اتلفتها اتلافاً تاماً أكلاً ودوساً بارجلها
والسودان يرغبون في صيدها لاخذ اسنانها وجلودها ولحمها أيضاً لكن في
صيدها خطراً جسيماً لان الرصاص لا يؤثر في جلودها الصفيئة. وقد وصف
كوفان هيئة صيدها مرة قال كما في غندوكورو في ١٨ شباط سنة ١٨٥٨
فاني تبجار العاج ومن جملتهم رجل يقال له علي طوي كان اصحابه لم يذوقوا
طعاماً الا الحبوب منذ مدة طويلة فاراد ان يطعمهم لحماً فعزم على صيد فرس
الماء. فاني ضوئة ثاني يوم واخبرنا انه رمى فرساً بالرصاص فحرق دماغه وجرح
آخر وبقي اصحابه برأبونه ربما ياخذ لوازم الصيد لنقاد ذخيرتهم. فضينا معه
لنتفرج على هذه العملية فوجدنا جمهوراً غفيراً من السودان اقبلوا على صوت
البارود وازدحموا لتوزيع اللحم عليهم. فركب علي زورق رجل باري ماهر في
صناعته وتقدم الى الفرس المجروح واطلق عليه الرصاص فوثب على الشاطئ
فاعترضه السودان بسهامهم فشكوه في راسه وطعنه آخر بمخراق في عينه واثبتته

ففيها فرجع الى النهر محاولاً اقتلاع المخراق وغاص تحت الماء. ولا يستطيع ان يمكث تحت الماء الا ريثما يحتاج الى التنفس وكان عليّ يتنبع اثره فلما رفع رأسه رماه برصاصة خرقت دماغه فرمحر زجرة مخيفة ووثب على الزورق من شدة حنقه غير ان الملاح الباري تراجع عنه بخفة وكان الفرس ايضاً قد وهى عزمه وكان الدم يجري من رأسه وهو يحاول الفرار وعليّ يطارده ويفطع دونه السبل حتى رماه برصاصة اخرى في قذالته (اي خلف اذنيه) فقلنا هذه تكون الفاضية فطفر بعزم شديد حتى ارتفع كل بدنه فوق الماء ثم سقط وجعل يخوض الماء ويدور على نفسه بعنف شديد. وصارت قوته تلتشى شيئاً فشيئاً الى ان بطالت حركته. فتقدم عليّ واطلق عليه الرصاص ايضاً فطفر ثانية فوق الماء وسقط صريعاً وبعد دقائق ظهرت قوائمه ففج السودان ضجج الفرح والاستبشار وقد قضى الامر وراية السودان بصطادونه برّاً بالخاريق بربطونها بحبل متين في جذع شجرة فاذا افندوا المخراق في الحبال يسرع الى الماء ويغوص وهو يزجر ويعلنون به ذلك وهو في النهر ايضاً لكن كثيراً ما يصدم السفن فيقلبها ويفر أصحابها ساجدين خوفاً من سطوته

وكل ذلك القسم الذي يجري فيه النهر الى الدرجة السادسة يقطن فيه اتمان يقال لاحداهما الطوبشة وهي على الضفة اليمنى وللأخرى النطشة وهي على اليسرى. يقيمون هناك في ايام الجفاف ليرعوا مواشهم في القيعان وتشب بينهم بار القن. وهم والورة والالبابة الى جهة الجنوب من سلالة امة الدنقة التي تنتشر في تلك الارض الى جبل نيماقي في الدرجة ١٢

وامة الدنقة هذه على ما اخبر المبشرون الذين عاشروهم مدة طويلة هم اجمل الامم التي على ضفاف النيل الابيض بينهم جيدة خفاف الحركة طوال القامات هيئتهم لا تدل على الوحش كمائر تلك الامم السودانية وكانوا ودعاء لكن ساءت طبائعهم بعد ما اساء اليهم الذين يجرون بالعبيد. ومن عاداتهم انهم يوسمون بجرح عميق بين العينين ويخرجون منه دوائر بالوخز على الجبهة وكلامهم

مواف من مقطع واحد على الغالب وليس عندهم حروف الصغير وذلك لانهم
يقتلعون الثنايا الاربع الامامية . ويحلقون شعورهم الا ذواته يعلتقون بها
اللائي ويجمعون في ابدتهم وارجلهم اساور وخلائيل من العاج وحلق النحاس
والحديد ويكرهون كل لباس . والنساء يترنن بجلدين واحد من الامام وواحد
من الوراء والخلفي اطول ويعلقن فيه شبه اجراس صغيرة وحلقاً من حديد
او نحاس حتى يسبح للراءة خشيش من مسافة بعيدة اذا مشت وقد يسترن
اكتافهنّ وصدورهنّ من حرّ الشمس . والرجال والنساء يعلقون في اذانهم
حلقات ثقيلة من نحاس وسلسلة من حلقات صغرى ويربطن بها خيطاً يشدّ
الى اعلى الجبين حتى لا تستطيل الاذن من ثقلها بطول الزمان

ويتعاطى الدنفة رعي المواشي ومن طبعهم الكسل لا يطلبون الثروة
ويكتفون بالكفاف لكن يعانون الانعاب في بناء منازلهم والنساء يبنّ بسائر
الاعمال بفلمن المحتول ويحرقن الارض بمعدية كالحلال ويعلقن اصول
النباتات غير النافعة ويذرّن ويحصدن ورجلهنّ على الماشية وزبارة
المجارات لا ياتون البيت الا وقت الاكل . والجماعة تكثر عندهم لتقاعدهم عن
الاذخار لكن الله يتدارك حاجتهم بعنايته فعند انتهاء الحصاد يكون وقت
نضج التمار الكثيرة عندهم فلا يحظر بياهم ان يزرعوا ثانية في نفس السنة
ويتهافتون على التمر . فاذا جاء وقت الجفاف اي زمن القيط يتسارعون الى
جوار النهر بمواشيهم ويسرحونها في المروج ويقتاتون باللبن والسمك لكن
لقلة اللبن ولسو تيجينه اذا اطبل استعماله مجرداً طالما يمحاجون ان يبدلوا ما عزّ
وهان ليتاعوا حبوباً من جيرانهم الذين هم ابصر منهم في عواقب المعيشة .
وفي تلك الاثناء تكون نساء الفراء في الغابات يجمعن فضلات الطعام لسدّ
الرمق في اَبان الجوع

ولو فطن اولئك اللهاء لما ذاقوا مرارة الشدة لان الارض خصبة جداً
والترية في غاية الجودة والري وافٍ وافٍ وفي بلادهم بقاع كثيرة مهملة

على جودتها بجود بها المسمم والذرة والتبغ. ويسهل ان يحصل موسمان في السنة لغزارة الري وقد حصل المبشرون هناك ثلاثة مواسم في السنة من نوع من الحنطة اتوا بها من خرطوم تخرج غلتها في شهرين والذرة تحصل غلتها في ثلاثة اشهر

ومعظم اهتمام الدنفة في البقر فهي اعز عندهم من نسائهم واولادهم لانها عمدة حياتهم على زعمهم وما سواها فضلة وبقرهم صغيرة غير حسنة الشكل بخلاف البقر التي في جوار نيانزا جنوبي خط الاستواء . ولبنها قليل جداً وليس لهم منفعة من لحومها لانهم يجترمونها جداً فلا يمكن ان يذبحوا واحدة لاكل لحمها . واذا ماتت بقرة يندبونهم كالولد والاخ والاب ويربط صاحبها رباطها في عنقه ويطوف بين الناس نادياً سوء حظها . واتفق ان احد المبشرين ذبح عجلاً فلقوه بالذئب

واما الثيران فيذبحونها في المواسم الكبيرة والاعراس والمآتم ولا يحصل للسباح من لحمها شيء الا بدفع مبلغ جسيم من نحاس او خرز ولشدة احترامهم للبقر لا ترى فيهم رجلاً الا ملقباً باسم ثور ولا امرأة الا ملقبة باسم بقرة واكثر حديثهم يدور على ذكر البقر وبها تختص اغانيهم ولاجلها تشاء حروثهم واحسن مكان عندهم مرايض البقر فيجتمعون هناك وينظرون اليها بلذة ويجمعون اروائهم بايديهم ويحفظونها بالشمس ويستخدمونها اما حرقاً في المرايض لطرد البعوض او يعملون منها الضلاء المار ذكره لشعرهم او يخلطونها بالرماد ويحشون بها فرشهم . واما ابوال البقر فهي ايضاً في مكانة عظيمة من احترامهم يغسلون بها التدوير والمراجل والصعود ويغتسلون بها ايضاً ولا يفضلون عليها الماء الزلال العذب ويصل بهم الامر الى ان يعتبروا السعيد منهم من يلازم بقرة فاذا بالت يجعل بدنه تحتها فيغتسل به ويفرك به وجهه وهو في اشد الفرح . ورائحة روث البقر وبولها اشبه الروائح عندهم

واما مساكن الدنفة فعلى نوعين فمنها ما يبنونها بسرعة على ضفة النهر وتكون

أَكُوَاخَامَنُ القصب مطينة بروث البقر يتقون بها النسيم البارد في الليل في فصل
القيظ وتكون موقفة . ومنها المساكن الأصلية التي يقبضون بها بينونها في الاحراش
وتكون أكواخاً مستديرة قطرها نحو أربعة أمتار تقوم على أوتاد وتشد بالاعصان
وفي خلالها القصب ويسقفونها بالنش اليابس على شكل مخروط ويطينون
جدرانها بالتراب وروث البقر ويرصون الأرض حتى تشد صلابتها ويعملون
الابواب ضيقة يرون بها زحفاً كالحيوانات في أوجرتها ويقفلونها ليلاً بقفل من
الفش من الداخل . ويعملون على الجدران تماثيل رؤوس البقر علامة للوداد
والحيات علامة للكره والبغضاء وينامون على جلد أو فراش من الفش ويكون
الاثاث كرائب محرزة وأوعية خزفية وقصبات غلابين يكثرون من استعمالها
وسلال معلقة في السقف توضع فيها ذخيرة الحنطة . وليس عندهم ارجحة فيدقون
الحب بهواوين من خشب صلب . فاذا جاء الليل يجتمعون ويتسامرون ملياً
ويستدقون بنار الروث وينغمسون في الرماد لانتفاء البرد الفارس
وللسودان رغبة شديدة في الرقص . ورقص الدنفة يكون ليلاً في ضوء
القمر يدورون به حلقة على صوت الطبل يفتزون ويصيحون كالوحوش
ويغنون اغاني لالتحين فيها موضوعها ذكر النساء والبقر . وفي هذه الاجتماعات
يختار الشاب عروسة فاذا وقع اختياره على واحدة تعقد الخطبة بإداء المهر
لعاثلتها وتكون قيمته بالنسبة الى رتبته فابن الحاكم عند القطشة يدفع لابي خطيبته
اذا كان رئيساً ايضاً عشر بقرات وعشرة ثيران ولامها عشر بقرات . وبعض
قلائد من الخرز او النحاس لادنى اقربائها . ولا تتزوج البنت قبل الخامسة
عشرة ولا الشاب قبل العشرين مع ان الادراك هناك يكون قبل ذلك العمر
بعدة غير قصيرة لحرارة الاقليم . فاذا حان الزفاف ياتي اصحاب العريس
بصحف مملوءة لبناً يقدمونها لابي العروس فاذا كان من الرؤساء يذبحون ثوراً
ويولون وائمة حافلة ويقدم العريس قسماً من المهر المتفق عليه فتصير الفتاة له
شرعاً فيأخذها الى منزله من غير احتفال ولا يودعي تمام المهر الا اذا ولدت

له ولداً فان كانت عاقراً فلا . ويطلبها ويتخذ غيرها
والعروس قبل ان تلد تتمتع براحة تامة وإفراح دائمة يكون الكل في خدمتها
كانها ملكة صاحبة امر ونهي فتى ولدت بطل كل ذلك وتصبح كالامة فتسعى
في جلب الماء والمحطب من الادغال تحت الامطار وتقوم بتدبير المنزل والفلاحة
والحصاد ولا يفارقها رضيعها في كل اعمالها وترضعه احياناً مدة سنتين اذا لم تغل
وتصنع له ارجوحة من الجلود وتعلقها بمناكبها وتذهب لاعمالها فاذا حصدت او
حرثت تعلق الارجوحة في شجرة حتى اذا انتهت حملته وحملت المحطب وعادت
الى بيتها فتذهب نضارتها في وقت قصير بسبب هذه المشاق وحينئذ يشتري
زوجها فتاة اخرى ولا يجوز ان يتخذ ضرة ولذلك لا تكثر النساء الا عند الاغنياء
فكلما كانت نساء الرجل كثيرة كانت دليلاً على وفرة ثروته

واما الدين عند الدنقة فهو على غاية من الخشونة لكنهم يعترفون بواجب
الوجود ويسمونه دنديد ويعرفون انه هو خالق الشمس والقمر والبشر غير انهم
لا يعتقدون خلود النفس بل يزعمون ان الانسان ينفى بالموت . ومع هذا
الضلال يوجد اعتقاد خفيف عند البعض فيقال ان النطشة والباري يذكرون
ان الله خلق الناس الصالحين وجعلهم عنده في السماء ولما اساء بعضهم تصرفه
انزلهم الى الارض بالحبال . واهل الصلاح من البشر يقدرون ان يصعدوا الى
السماء بهذه الحبال لكن بطول الزمان تمعات الحبل وينقطع وقد اغلقت
ابواب السماء دون الجميع

وعندهم فكر آخر بشأن سعادة الانسان الاولى وسقوطه يستنتج من كرههم
للحيات لانهم يعتقدونها مبدأ الشر ولها يقدمون الضحايا لانهم يقولون ان الله
لعظم صلاحه لا يحتاج الى ترضية . ومن الغريب انهم يعرفون الحكمة المسماة بيشون
في الميثولوجيا اليونانية ويدبحونها لها ثوراً . قيل ولا يبعد ان هذا الاسم انصل
منهم الى مصر ومنها الى بلاد اليونان . وكل الحيات عندهم سامة الا الافعى
الخضراء التي تتعلق بين النصب على ضفة النهر . والمسماة بيشون يبلغ طولها اكثر

من سنة امتار . وكل انواع الحيات توجد في الاحراش والساتين والمنازل ايضاً
 تنساب اليها لتقتل البقر وتمش لمومها . فلا يخرج الانسان من منزله الا
 متخذراً الكثرة وجودها في كل وقت . واسع الحية هناك يتبع هولاً شديداً
 وقد ذكر بعض السياح حية انت وهو مع جماعة جلوس على المائدة ليلاً
 وكانت من اخبث انواع الحيات تقتل من ساعتها . واول من رآها منهم صاح
 مترعجاً وبهت الجميع وجعل السائح ينظر هنا وهناك ليراها ثم رآها ساعية نحوه
 وتسلفت رجله وقصدت الدخول في كفه فتمض من ساعتها ودفعها فوثب
 الجلوس كلهم وانقلب المائدة والصحون والقناديل ثم تعاونوا عليها بالعصي
 حتى قتلوها

وقد نتج ما ذكر ان امة الدقة ساقطة جداً بالنسبة الى العقائد الدينية
 ولذلك كثرت عندهم الخرافات وخرعيلات المشعوذين وسيضع ذلك في
 الكلام عن الباري في الفصل التالي

الفصل الثالث

امة الباري — عاداتهم واخلاقيهم — رقصهم — المستطرون —
 ذكر جماعة من المبشرين

من صعد النيل الابيض وبلغ الدرجة السادسة من العرض الشمالي يرى
 تغيراً عظيماً في مناظر الطبيعة واشكالاً جديدة من هيئة البلاد . فهناك ليس
 منافع ولا آجام من القصب بل تبدو في السهول الفسيحة قارات كثيرة . والنهر

في تلك السهول التي يشتملها يكون نارة عريضاً شديد الجري ونارة يلقى
بتعرجات كثيرة ويحرق بحزر عريضة نقطتها امة يقال لها شيرة . وتلك الجزر
كثيرة النباتات والادغال . وهناك مزارع الذرة ومروج الكلال تسرح فيها
الوف من المواشي . والخضرة تغشى الاكام حتى لا يرى منها صخر ولا تراب تقريباً
وتسدد الافق جبال مستديرة من جهة الجنوب وقرى امة الباري متباعدة في
مسافة بعيدة اما على حدود العابات او في الاكام والخصب هناك يزيد المناظر
رونقاً والسكنى بهجة واذة

وتلك الامم اسى عقولاً من سائر الامم السودانية ولغتهم تؤذن برفع
سلاتهم وتمتاز امة الباري بعنفها في اعمالها وخشونة طباعها فانهم طاعون
مشاغبون يعيشون بين القبائل متنقلين من قبيلة الى اخرى ولا يدانهم التجار
الا بالسلاح خشية من سطواتهم . ومع كثرة الخصب والخيرات الطبيعية في تلك
البلاد كثيراً ما تلتف اهلها المجاعات وما ذلك الا لقلة الزراعة والتقاعد عن
اعمال الحياة وتكرار السرقات والنهب وغيث فرس الماء في الحقول . والداعي
الاكبر الاسراف في النهم يأكلون غلال الذرة والسمسم في ثلاثة اشهر فتعقب
ذلك الفاقة الشديدة وتبلغ اشدها في نيسان وايار فيشردون في البلاد هزلاً
من شدة الجوع ويقصدون سفن التجار ومستقراتهم ليلتقطوا ما يتيسر لهم او
ينادي مناديتهم الطعام يا جياع فينبادرون كالذئاب ويلتهمون كالحيتان
وكثيرون منهم يموتون جوعاً وقد يصل الياس بالامهات الى ان يطرحن
اولادهن في النهر اذ ليس هن ما يقتاتون به وتكثر السرقات والتل

والذي عنده بعض بقرات يفصدها ويغتذي بدمها واذا مات حيوان
تهافتوا عليه كالنسور على الجيف . وعند ذلك تقبل ايام المواسم فيقومون
باعياد حافلة وتكثر افراحهم وبولون الولائم ويعقدون كل ليلة مجالس لهم
بين رقص وغناء ولعب وشرب وهلمّ جرّاً

وعادة الرقص هناك ما يدل على الخفة والطيش فلا يعتبر اولئك النضر

بين اجبال البشر الا كالأولاد في جانب الرجال . قال احد المرسلين عند ذكر هذه العادة انهم يضربون الطبول بعد الظهور لكي يعلموا ان الاجتماع في المساء . فاذا كان المساء يسمع ضرب الطبل مستمرا على مناسبة حركات الرقص حثا لاهل القرى المجاورة لياتوا وينضموا اليهم . ففي الساعة الثالثة اي بعد ارتفاع القمر ارتفاعا كافيا يزدهجون كالجراد من كل ناحية في المكان الذي فيه يرقصون

ثم يجتمعون تحت الاشجار الكبيرة وتكون لهم جلبة عظيمة وصياح الفرح والغناء ونحو ذلك ما يستوقف النعام المجافل ومن جملة كلامهم الذي يتكرر « تابو . فارانا . لاري كاتا . تابا باين » اي أنت هذا . مساء الخير . هذا يوم الرقص . هل معك تبغ . وبين ذلك احداثهم يتواثبون ويتلاعبون « مثل السعادين » وعند ابتداء الرقص يؤلفون حلقتين احدهما داخلية من النساء والبنات يجامح سوق الذرة بصفة رماح . والاخرى خارجية محيطية بالاولى من الرجال والصبيان ومعهم الخوذ والقصي والرماح . والاعيان منهم يحملون تروسا من جلد الفيل . وكل منهم يغلى باثن ما عنده من الخنف . والحلبة العامة للراقصين مولفة من اجراس صغيرة تعلق من القدم الى ما فوق الركبة لا يزال صليلها يوقر الاذان . والنساء يعقدن مآزر جديدة والبنات يزبن اعناقهن واكتفاهن بالخرز ويعلمن من الوراء ضفيرة من جلد على شكل ذنب البقرة والرئيس يتخذ شارة المهابة دهن جسده بدهن شجرة يسمونها قورولنغي ممزوجا بمغرة ويلقى حمائل صفراء وعلى راسه منقار احمر وفي يده ترس من جلد النمل وعلى منكبيه جلد نمر وفي ساقيه وذراعيه حلقات عديدة من النحاس معلقة ثم ياخذون في الرقص ويتخلل ذلك حركات وحشية وصياح كمعواء الذئاب

ثم تضرب الطبول ضربا خاصا فيتوقفون عن الرقص والغناء وفي الحال تبرز الابطال للمصارعة والمقاتلة وهم كالاسود الضاربة ويهزون رماحهم

ويتلاحمون ثم تولول النساء ولولة شديدة فتلقى الراح ويستغرب الكل في الضحك حتى تدوي الأرجاء . ثم يعود ضرب الطبول ويتقدم الزعيم ورمحه بيده ويركض ويتبعه الراقصون وتدور حافلة النساء الى جهة مخالفة . ثم ياتون بحزم من الفش مشتعلة ويطرحونها في وسط حلقة الرجال وياخذون في الرقص الحربي باحتدام حتى كأنهم الابالسة في جهنم يحرقونهم ومناظرهم وصياحهم وطنين الاجراس ودوي الطبول يزيد الحال فظاظة ومهابة

وهذه الاعمال والحركات الخشنة التي تظهر في محافل الرقص تظهر ايضاً في سائر المحافل من اعراس ومآتم واعياد ونحو ذلك . وفي الاعراس يولون ولائم فاخرة حافلة بأنواع الاطعمة وكثرة الاشربة . وفي المآتم يخرجون مع الجنائز بعويل يلقى الاقطار وحركات تهلك الابدان وذلك لكي يطردوا الشياطين على زعمهم عن الجنائز ومتى دفن الميت يعلنون ايضاً بعويل شديد جداً ومن عادة الدقة ان الواحد يسمح له باقامة نساء على نسبة مقدرته المالية لانهم يشترون نساءهم كاصناف البضاعة كما اشرنا آنفاً . وتكون كل واحدة في كوخ على حدة لكن تكثر بينهم الخصومات والفتن المسببة عن تحاسد الضرائر وتصل الغيرة ببعضهن الى ارتكاب الفضائح . فقد ذكر كوفمان ان امرأة اشتدت بها الغيرة واحرق فوادها الحسد لكون ضربتها ارفع منها مترلة عند الرجل ففي ذات يوم قبضت على بنت هذه الضرة وقلمت عينيها وبقرت بطنها فاستخرجت قلبها فعلم زوجها بذلك فقتلها صبراً

والفقر من اعظم اسباب توحشهم وضرائهم فهمم الاكبر ان يملأوا بطونهم ولذلك لا يهتمون بدين ولا ادب . ويعتمدون وجود قوة خالفة اسمها مون ويقدمون قربانين من لبن وغير اطعمة للافاعي السود زاعمين انهم من سلالتها . لكن لا يعترفون بخلود النفس ولا ياتقون من الانتحار

والمشعوذين والدجالين والرقاة وامثالهم مقام عظيم عند تلك الامة البارية وادعى بعض سحرةم ان السلاح لا يورث في جسمه . فاجتمع اليه الناس من كل

فج وتواردت اليه الهدايا كالسبل المتدفق فانفق يوماً انه خطب خطبة طعن فيها بنجار المصريين فترصدوه حتى قتلوه غدراً . فاحتاط قومه بشلوه وصاروا منتظرين رجوعه الى الحياة ولم يتحققوا موته حتى يلي

ومن اغرب ما يزعمون ان فيهم اشخاصاً يستمطرون السحاب اي يدعون انهم يتزلون المطر متى شاؤوا . فيخترمون ذلك الشخص اشد الاحترام ويجلون مقامه جدّاً ويأتونه بالهدايا من كل نوع وخصوصاً اذا طالمت مدة القحط اي احتباس المطر . غير انه يكون معرضاً للويل اذا خاب علمه فانهم يجنبون عليه ويشقون بطنه زعماً منهم ان الرياح والغيوم كامنة فيه لم يرد ا ولم يندر ان يخرجها الا ان يسكنهم بمواعيد تنعمهم او يلقي التهمة على كثرة شرورهم

واخص مركز لتجارة العاج عند امه الباري قرية غند وكورو الواقعة على الضفة اليمنى من النهر وفيها كان مقام المشركين الكاثوليك سنة ١٨٥٠ و ١٨٦٠ وكان اول اسير وشهيد منهم انجلوفنكو الايطالي . فانه كان منفرداً بين اولئك البرابرة وكان احسنهم طباعاً لا يخلو من تكرار الاساءة اليه فلم يضعف عزمه بل جعل يث بشارة الانجيل بغيره حارة . ثم سافر الى جهة الغرب وصادف على نهر يصب في نهر صوبة قبيلة من السودان يقال لها برّي افاد عنها افادات جديدة وكان يطوف هناك وحده بين المخاطر

وانفق يوماً انه اراد الرجوع الى بلاد الباري فاكمن له ملك ليريا خمسمائة رجل ليقتلوه لانه كان عدو ملك الباري . وكان الكمين على شاطئ بحيرة يضطر المبشر ان يمر بها ليستقي ويبيت تلك الليلة . فلجل سعده مر واستقى ولم يبت حساً بالمسير ليلاً لتخفيف ثقله حرّ النهار . واتى الرجال من مكمنهم الى جهة المكان الذي ظنوا انه بات فيه فلما وصلوا نفرت الطيور من الاشجار لكثرة جلبتهم فحافوا وقد توهموا ان روح المبشر ثارت في وجعهم بمجيوش جرارة فاخذوا مضطربين ونطاعنوا بالرماح وهم لا يعرفون انهم يقتلون انفسهم فقتل منهم ستة . فلما رجعوا الى الملك لفقوا له حديثاً هائلاً بشأن مقدرة المبشر

حتى آلى ان لا يقصد من اخرى ملاحظته وقد نوهه روحاً واهماً قدبراً
 وبقي هذا المبشر ساعياً على قدم النجاح بمجمل صبره وحسن تديره حتى
 صار مطاعاً نافذ الكلمة في معظم احداث القوم . وقل القتل بين امة الباري
 وندرت الفتن . فصارت امة البري معتبرة نظير اله . وكان كل صباح يجد على
 بابيه طعام نهاره وهو لا يدري من يأتي به . وجرت عليه امور مسبئة من قبل تجار
 خرطوم لم تخط من قدره بين البرابرة فاستمر عندهم الى ان عجز عن العمل لكثرة
 المشقات فأت امير الانسانية شهيد البشارة . فاسفت عليه امة الباري اسفاً
 شديداً لا مزيد عليه ولبسوا الحداد جميعهم كباراً وصغاراً رجالاً ونساء . وكان
 نحو اربعة آلاف منهم يزورون قبره وينوحون عليه وينجحون الثيران مدة
 ثمانية ايام

وبعد ذلك انت لجنة من المبشرين لكن لم يكن لهم عند الباري شان رفيع
 الا لغايات خاصة اعظمها اشباع بطونهم من خيراتهم فكانت مسالمتهم اياهم رياءً
 وكثيراً ما كانوا يسرقون من امتعتهم وغلاهم . وكانت اتصالية الباري بتجار
 خرطوم مانعاً اكبر في سبيل نجاح اللجنة فكانت جماعات منهم ومن جملتهم كثير
 من الاوروبيين الاردباء ياتون ويفسدون امور المبشرين ويحرضون الباري
 على اذيتهم . وما اوغر الصدور ايضاً ما كان يجري من الاخطار والقتل بسبب
 تجار العبيد المدعين تجارة العاج فصار الاهالي يكرهون الاجانب كرهاً شديداً
 وبذلك تفاقمت الفتن . ومن ثم حبط مسعى المبشرين تكراراً وقتل منهم عدد
 غفير في جهات مختلفة



الفصل الرابع

نهر صوبة ومجر الغزال — قبيلة نيام نيام — ذكر غير امور

النهران المذكوران يصبان في النيل الابيض وكثيراً ما قصد نواحيهما تجار العبيد وصيادو الفيلة. وكان السائح اربود قد دخل نهر صوبة من مصبه . فاستقراه رجل مالطي بعد ذلك اسمه اندريا ديونو سنة ١٨٥٤ وكان معه رفيق اسمه فيليب ترانوا . فوجدا نهراً عظيماً الشان يجري بتعاريج كثيرة في سهول فسيحة كثيرة النبات والفيلة وبقر الوحش والزرافات . ويسمى باسماء مختلفة باختلاف الاقطار

وعلى ضفتيه قبائل من سلالة البدنتة والشلوق . وقصد ديونو ورفيقه ان يدخلوا بلاد البري لياخذوا العاج فصعدا في فرع من النهر الى مسافة بعيدة ثم توقفنا بسبب هبوط الماء الناتج عن القحط فاضطرا ان يبقيا عدة اسابيع بين جماعة من السودان خائفاء الطباع لا يندران ان يتقدما ولا يتاخرا وكثيراً ما اضطرا الى السلاح لدفع شرورهم . غير انها حاولا اجراء العلاقات بينهما وبين بعض رؤساء البلاد مع انهم منطبعون على الطمع والخبيث . وقد ذكر ترانوا في جريدته اخباراً بشأن تلك الاقامة فقال

سافرت في ٥ اذار مع خمسة عشر من العبيد للقاء سلطان الشلوق وكان مقيماً على مسافة نحو يومين في الداخلية فوصلت في اليوم الثالث . وعلم الملك

بندومي فارسل الي كبة وافرة من اللبن وغيره من الاطعمة ووعده انه ثاني يوم يزورني . فلما كان الغد رايت جمهوراً من السودان في حركة وشغل شاغل من تهديد الطريق فسالهم ما الداعي لذلك فقالوا هذه الطريق التي يمر بها السلطان . وكانوا يفرشون الطريق بالرمال وروث البقر ويسندون ذلك بالجلود . وكان الناس قاعدين على جانبي الطريق . لانه لا يسمع لاحد ان يقف بحضرة الملك . ثم اقبل بحاشية قليلة الى ان وصل وجلس على اسكمتة على مسافة ثلثي خطوات من خيمتي وامر ان آتي واجلس لديه فحمل عبيدي طنفسة ووضعوها امامه فجلست

وكان شاباً حسن الهيئة والشكل عاري البدن يلبس فلاند من خرز تستطيل بالتدرج الى ساقيه الواحدة اطول من الاخرى . وعلى راسه قبع مزين بالخرز ومشدود الى عنقه بعقد من صغار الصدف وفي راسه عنكولة من ريش نعام اسود . وكان جالسا جلسته خاصة وحوله اربعة من خواصه كل منهم قابض على قائمة من قوائم الاسكمتة وقدامه رجلان يضع احدي رجله على فخذ احدهما والاخرى على فخذ الآخر . واثنان اخران واحد عن يساره واحد عن يمينه وظيفتهما ان يتلقيا بايديهما بصاق السلطان كل بدورة فيمرغ به وجهه كانه دهن واذا فات يد احدهما البصاق بصق الملك في وجهه

وفي اليوم التالي اتى لزيارتي ايضاً وقدم لي ناب فيل وزنها خمسة ارطال فقدمت له كبة من الخرز وقبعاً مزيناً بالخرز وجرسين صغيرين كالحلجل لكنهما ملفوفان بحيث لا يراها فكان يتعجب منها ويبحار غير عارف من اين ياتي صوتهما الى ان افهمته . وقدمت له ايضاً امرأة صغيرة فلما راي فيها صورته الشنيعة ظن انه يرى شخصاً آخر وراها واذا لم ير احداً الا اذا نظر فيها تعجب وسألني كشف هذا السر فافهمته ان كل من نظر فيها لا يرى امامه غير صورة نفسه وما يواجهها ما يفر به . وقدمت ايضاً فيصاً علفت في صدره خرزاً وجلجل وبعد ذلك سألته ان يسمح لي بشيء من الاخشاب لابني لي كوخاً . فامتنع عن اجابتي

واما نهر الغزال فهو يأتي من جهة الجنوب الغربي ويدخله التجار جماهير
جماهير وقد اقاموا على ضفتيه منازل عديدة . وباستقراء البلاد التي يجري
فيها عرف السباح احوال امة نيام نيام التي شاعت فيها اقوال غريبة مختلفة .
وقد اشرنا اليها في القسم الاول من هذا الكتاب . وكشف السر المتعلق بنجر
اذناهم السائح العالم غليوم لجان الفرنسي

وهذا السائح آخر من استقرى النيل الاعلى كلفه الامبراطور نابوليون
الثالث برسالة الى السودان فوصل الى سواكن ومنها مضى الى خرطوم
فوجد هناك صعوبات شديدة تعترض دون مسيره في الداخلية لان تجار
العبيد كانوا قد اكثروا من العيث بين سرقة ونهب وقتل وتخريب وهلم جرا
حتى اشتد كره السودان لكل اجنبي فكانت التجارة لا تبسر الا بتجريد عسكر
تام . ولذلك كان لجان مرتاباً من جهة التجار ولم يجسر ان يصحب احداً منهم
فجمع على نفقته عشرين رجلاً وركب النهر محمواً وسار سير المعنف . فلم
يخدمه طالع سعد في هذه الرحلة فانه بلغ غندوكورو فوجد الفتن فيها على ساق
وقدم بسوء معاملة تجار العبيد فامتنع اصحابه ان يتقدموا في طريقهم فركب النيل
الابيض واجتاز منه الى بحر الغزال فاسقراه الى حد ينابيعه في زورق للبرابرة
غير انه لم يستطع تتبع مناصده لان تجارة العبيد في تلك الاقطار كانت
تدعو الى افطاع الاعمال واخفى النبايح حتى لم تكن بلدة تخلو من نيران فتن
مستمرة والدماء تجري من اهلها انهاراً والاضطراب لا يقر له قرار ولم يكن احد
ضعيف الجانب يامن على نفسه . فرجع لجان حزينا اسيفاً لهذه الاضطهادات
وقرر عنها تقريرات مستوفية . وقد ذكرنا هذا المعنى في القسم الاول من هذا
الكتاب . والله الموفق الى سبيل الرشاد

ملحق

في مجادل الافطار الشمالية من الكرة الارضة

الفصل الاول

النقطة الشمالية

ليست الصعوبات التي تعرض في طرق المتجولين في افطار افرقية الوسط
المحرقة اعظم من التي تطرأ على الباحثين في بلاد تجلييت من الجمد جلباباً ابدياً
وكما تحركت خواطر العلماء الى استنراء مجاهل افرقية نهض بهم حب الاطلاع
الى المخاطرة في كشف تلك المجاهل الجليدية . ومعظم رغبتهم في هذا البحث حب
الوقوف على احوال المحوادث الطبيعية التي يقوم بها نظام كرة الارض
والاقطار القطبية بالنظر الى هيئتها الجغرافية عبارة عن قبة عظيمة من
الجليد تستر سطح الارض في كل من القطبتين وليست لها تخوم محدودة الا
بالتقريب بواسطة الدائرة القطبية

ومساحة الاقطار الشمالية تقرب من ١٧٠٠٠٠٠ فرسخ مربع ليس سطحها
الاماء واليابسة بنسبة مختلفة وغير محدودة ففي شمال بر اميركا لتخلل البحار
جزائر لا تحصى مثورة بلا نظام على ابعاد متباينة من البر منفضلة بمضائق ليس
بينها نسبة في الطول والنصر والعرض والعنى حتى لا يمكن التمييز بينها بالاستنراء

وكل سنة في الشتاء تجمد تلك المضائق البحرية فنصل الجزر بعضها ببعض
بحسور من الجليد . فتكون خطاً تخمينياً للنقطه الشماليه كدائرة يبلغ معدل قطرها
نحو ٢٠٠٠ كيلومتر

وهذا المحاجر العظيم هو الذي حاول الناس خرقه بوسائل عديدة منذ
اربعمائة سنة والى داخلته توجهت خواطرهم برغبة شديدة كما توجهت للتوغل
في اواسط افريقية الكثيرة المخاطر

ولما باشر الناس الاسفار الطويلة وكان فاسكودا غاما اول من فتح
طريق الهند القديمة فانقلبت هيئة العالم التجارية حدثت حركة عظمى في اوربا
وتبادرت اهلها اسلوک اقصر الطرق الى تلك البلاد المشهورة بافاويه التي هي
محمور عظيم لدولاب التجارة . وهذا الجهد هو الذي اهلهم كولاوس لاكتشاف
اميركا ومن ثم حاول الناس اكتشاف معابر الى الجنوب والشمال فاما الجاز
الى جهة الجنوب فقد اكتشفه ماجالان السائح المشهور (راجع الفصل الاول من
ملخص السباحات الكبرى) واما الجاز الى الشمال فبقي على شدة العناء مجهولاً
الى القرن السابع عشر وكان الاهتمام بكشفه منذ القرن الخامس عشر . وكان
ابناء الفرون الماضية لا يهتمون لبلوغ الدرجة التسعين من العرض الشمالي ولم
يخطر ببالهم ما ينبغي عن اكتشاف تلك الاقطار من المنافع العلمية واما ابناء هذا
القرن فقد عرفوا انه من الضرورة لفائدة عظمى للبشر ان يخاطروا هذه المخاطر
الجسيمة وكانت كل امة من امم اوربا تفخر بمن يركب منها اخطار البحار الشمالية
وليست الفائدة من بلوغ النقطة الشمالية تتعلق فقط بالعلم النظري بل لها
شان عظيم بالنسبة الى العلم العملي لان عليها يتوقف مستقبل العالم مادياً . ففي
النقطه الشماليه مركز الانواء الارضية ومنها مصدرها ومصدر التقلبات الجوية
والبحرية التي تنلف في مدة قصيرة نتيجة اعمال طويلة . فهناك نقطة مهاب الرياح
وجزائر البحار التي هي مصادر اسباب الحر والبرد

ومن ذكر اصحاب الرحلات يتضح تقدم الناس في المعرفة وشدة اهتمامهم

بتلك الاكتشافات وذلك من الاطلاع على ما كان كل من السياح يكتبه بخصوص ما يدخله من تلك الاقطار . فسبستيان كابوت اكتشف بلاداً سميت « الارض الجديدة » وغسبردو كورتر بال اكتشف بلاد ليرادور . و جاك كرتي اكتشف « فرنسا الجديدة » اي كنادة . و بيرين الدانركي اكتشف المضيق المشهور المسي باسمه ومات هناك . و هيرن اكتشف البحر القطبي وهو يتصيد لحساب شركة هدسون . و ماك كنزي اكتشف النهر الوحيد من اميركا الذي يصب في البحار القطبية وسماه باسمه . و فوريشر و دافيس و بافين و فوكس و ميدلتون و بيلوغي و سكورسي و بارتس و رنجل و روس و باري و كثيرون غيرهم بذلوا جهدهم و خاطروا بحياتهم حتى ملأوا الخارطات الشمالية باسماء جديدة و عرفوا عدة اماكن قطبية و حاولوا خرق تلك الحواجز الهائلة التي تحمّل دون بلوغ القطبة . و كان معظم اهتمامهم اما لمصالح تجارية او للافتخار بالاكتشاف ان يجدوا طريقاً صحيحاً يوصل بين الاتلنك والاقيانوس الجنوبي اي الباسيفيك ولذلك لم يوجهوا كل خواطرهم لبلوغ القطبة ففألت رحلاتهم اليها الى ان قام فرنكلين وسافر لاستقراء الاقطار القطبية فرحل ثلاث مرات آخرها سنة ١٨٤٥ فكانت آخره هذا الرجل العظيم مخنوفة بالعاصفة وخفي اثره مدة طويلة حتى تحركت هم انكلترا واميركا لاقتناء اثاره والسعي في نجدة اذا كان حياً فتبعت عن هذه الرحلات نتائج عظيمة الفائدة كما سنبين . والسبيل الذي سلكه فرنكلين بمضيق لنكستر كان مجهولاً من جهة الساحل الشرقي من غرينلندة ولم يتيسر النجاح لعدم انتظام مجاري المياه والجليد في تلك الاقطار ولم يندر احد اذ ذاك ان يتجاوز الدرجة ٧٨ حيث البلاد المسماة بارض الملك ولیم . غير ان الساحل الغربي من غرينلندة هو الذي تيسر فتح سبيل فيه فاتح النتائج الحسنة وسياتي في فصل نال ان مرکهام بلغ سنة ١٨٧٦ الدرجة ٨٢ والدقيقة ٢٠ وهي اقصى نقطة شمالية بلغها اوروبي . ومنذ اكثر من ثلاثين سنة كان اهتمام السياح معروفاً في ذلك السبيل اما لبلوغ القطبة واما لتحقيق الظن بوجود بحر

سائل داخل القطبة في وسط الدائرة الجليدية العظيمة
وبالاختصار نقول ان محاولة بلوغ القطبة الشمالية نجحت عن السعي في
اكتشاف مرّ من الشمال الغربي والشمال الشرقي فتحصّلت من ذلك معرفة
حوادث قطبية تستحق الاعتبار . على ما سيأتي

الفصل الثاني

الاستقراءات منذ عهد فرنكلين

قلنا ان الخواطر توجهت الى جهة فرنكلين في رحلته الثالثة ليبحار النقطة
الفاصلة بين الاوقيانوسين وكان معه ٢٨ رجلاً فقط ومضت عليه سنتان ولم
ترد من نحوه اخبار فاشتغل بال انكلترا وارسلت ثلث لجن ليفتشوا كل البحار
والاجوان والبواغيز التي في ارجيل اميركا في جوار جزيرة ملفيل . فلم يصادفوا
نجاحاً فتمركت الولايات المتحدة وارسلت اسطولاً مولفاً من احدى عشرة سفينة
من جملتها سفينة جهزتها امرأة فرنكلين وجعلت قيادتها للبرنس البرت .
فاستقروا سنة ١٨٥٠ نواحي بوغاز بارو وتقبّوا باجتهاد حتى يروا دايللاً واحداً
للاهداء الى السبيل الذي سلكه فرنكلين . فحبط المسعى ايضاً . ثم عاد البرنس
البرت سنة ١٨٥١ على نفقة امرأة فرنكلين وصحب شاباً فرنسويّاً خبيراً اسمه باو
فبذل جهداً لا يقدّر وعاد القوم خائبين . فجهزت في السنة التالية سفينة اسمها
ابزابل فلم تاتِ بنتيجة ايضاً . ومع ذلك فلم يضعف العزم فاعادت الفرنسي

بلو سنة ١٨٥٣ فوصل الى جزيرة بتشي وهي النقطة المركزية للبواغيز القطبية وعزم على المسير الى مضيق ولنتون ليسلم الى القبطان بلشر رسائل تاغرافية فدهمه عاصف شديد الفاه في شق عميق ولم يشعر به رفاقه ففضى شهيد العلم والانسانية واسفت عليه انكثرا كما اسفت فرنسا

ومع كل ذلك لم تسقط همّة الناس في البحث عن فرنكاين فسنة ١٨٥٨ و١٨٥٩ رحل القبطان ماك كلنتوك في ثلاثين سفينة وكانت امراة فرنكاين قد جمعت ما بقي لها واستعانت باهل النحر والساح حتى جهزت سفينة القبطان المذكور . فمضى وصحبه ٣٦ رجلاً من نخبة الملاحين منهم اثنان من احذق الناس واكثرهم خبرة . فاقاموا في بحر بافين مدة الشتاء ومضوا في نيسان سنة ١٨٥٨ الى مضيق لنكسبر وبلغوا جزيرة بتشي واقاموا اثراً لندكار فرنكاين ومضوا الى مضيق البرنس ريجن ليصرفوا فصل الشتاء

ففي ربيع سنة ١٨٥٩ بلغوا شبه جزيرة بوثيا وهم يسألون الناس عن اهل السواحل فافادهم قوم من الاسكيو انكسار سفينتين كبيرتين في جهة الشمال الغربي من ارض الملك ولیم واروهم اشياء مختلفة من اثار الغرقى . فنقدم ماك كلنتون ورفيقاه لاستفراء سواحل تلك الارض . فلما بلغوا المكان الذي وقف فيه جسر روس قبل ذلك العهد بعشرين سنة بنس هذا السمي وجد هسون احد رفيقي ماك كلنتون ردهة من الحجارة فنبشها ووجد فيها ما اطار فواده فرحاً وجد رقعتين فيها افادات من اصحاب رحلة فرنكاين وضعوها هناك حين مرورهم الى السواحل المأهولة وكانت هذه الردهة اثراً بنى بمرور الذين كانوا ينتشون عليهم . ففي احدى الرقعتين ذكر اقامة فرنكاين في فصل الشتاء في جزيرة بتشي والثانية مورخة في ٢٥ نيسان سنة ١٨٤٨ ومكتوب فيها ما ياتي « توقفت السفينتان عن المسير بسبب الجليد في ١٢ ايلول سنة ١٨٤٦ واطلقنا في ٢٣ نيسان سنة ١٨٤٧ على مسافة خمسة فراسخ من جهة شمالي الشمال الغربي وكان عدد الضباط والركاب ١٠٥ تحت قيادة القبطان كروازي فاقاموا في هذه

الارض ومات فرنكلين في ١١ حزيران سنة ١٨٤٧ . وعدد الذين ماتوا الى هذا اليوم تسعة ضباط و ١٥ نوتياً . وغداً (٢٧ منه) سافر الى نهر باك .
فحينئذ تقدم ماك كلتون ونائبه الى الجهة المذكورة فوجدا بسهولة آثار اصحاب الرحلة اي جثثهم مشورة على الارض وزورقاً معداً لاجتياز المضيق الفاصل بين تلك الارض وبراميركا . هذا كل ما عرفاه

وسنة ١٨٦٨ و ١٨٦٩ كانت رحلة مال الى هناك فاستفاد من الاسكيمو فوائد منصلة بهذا الشأن مدة اثنائه في جون بولس . فيعلم ما افاد ان كروازي كان قد بلغ البر في طوف من جلد اشراه من الاهالي بعد ان ترك الزورق الخشبي لثقله على نوتيه المنهوكين من التعب . فلما نزل الى البر اضطر الى فتنة بينه وبين الاسكيمو ففاز بالظفر وقد اعى اصحابه فوجدت جثثهم مطروحة على طريقهم والشرذمة التي بقيت منهم حاولت بلوغ حصن بروفيدنس فلم يصل منهم احد والاخير الذي بقي منهم كان الاسكيمو قد امسكوه عندهم فمات سنة ١٨٦٤

فندل المهمة في التنقيب عن آثار تلك الرحلة واتى بكشف امور اخرى . نعم انهم اكتشفوا آثار الرجال لكن لم يعرفوا ملخص الاعمال التي قام بها فرنكلين . فسنة ١٨٧٣ و ١٨٧٧ استنصى قبطانان يقال لهما بوتروباري اخبار تلك النكبة من الاسكيمو فاخبر اثنان منهم بياغان من العمر من خمسين الى ستين سنة ان الذين بقوا في الحياة من اصحاب فرنكلين اقاموا ردة اودعوها الاوراق المتعلقة برحلتهم . وبعد ذلك وقف القبطان ادمس في نواحي ارض كوكبرن على افادات تتعلق بموت فرنكلين

ثم ان غردون بنت مدير جريدة نيويورك هرلد اراد ان يرسل جماعة للتنقيب على فرنكلين كما ارسل للتنقيب على ليفنستون حين طست اخباره في مجاهل افريقية لكن لم يات مسعاه بنتيجة . فالحاصل ان كثرة الرحلات المسببة عن نكبة فرنكلين قد انتت العلم بنوائد حمة عظيمة الشأن بخصوص القطبة

الشمالية وكان عدد الرحلات ١٩ في مدة ١٢ سنة وكان معظم المناظرة بين
انكيترا واميركا لمعرفة طريق القطبة فاكشفت بذلك اكتشافات جلية من
جملتها القول بوجود بحر سائل ضمن المنطقة الجليدية في نفس القطبة

ومن اعظم الرحلات التي تستحق الذكر ونقوم بمجد صاحبها وتؤيد سمى
همه رحلة القبطان هال فانه جهز بنفسه التجهيزات اللازمة ومضى في سفينتين
يقتم الاهوال فانكسرت السفينتان ولم يضعف عزمه بل ركب زورقاً وطاف
به البحار ومكث مدة في بلاد الاسكيمو يتخلق باخلاقهم ويتخذ عاداتهم حتى
وقف على اسرار تلك الاقطار وانكشفت له سرائر تلك الامة من سنة ١٨٦٤

الى ١٨٦٩

فلما رجع نال رضي العموم ووهبته الحكومة تعويضاً عن خسائره خمسين
الف ريال وسفينة من احسن السفن البخارية . فتجهز لرحلة جديدة وكان
بصحبه رجلان من الاسكيمو مع عيالهما كانا سبباً لانقاذ المسافرين من هلاك مبين
غير ان التوفيق لم يساعد هذا الرجل العظيم فانه لما بلغ الدرجة ٨٢ من
العرض الشمالي مرض ومات فدفنوه في الارض التي اكتشفها وسميت باسمه .
وانفق ايضاً ان السفينة الكبرى صادمت بعنف التيارات قطعة من الجليد كالجبل
ثم صدمتها قطعة اخرى ورفعتها الى علو عظيم فستطعت عنها وانفصل منها ١٩
رجلاً بقوا على الجليد والسفينة نجرها التيارات في عرض البحر

وكان من جملة الذين انفصلوا عن السفينة النائب تيسون وهو ذو سكية
وثبات وحذق في التدبير لا يفشل لدى المصائب . فلما يس من السفينة كان
اصحابه قد افكروا ان يتخذوا اقرب واسطة نعيم من الهلاك غير ان الصعوبات
فاقت الحدود فانهم كانوا بعيدين عن البر وقطعة الجليد التي كانوا عليها كانت
تسير بهم في عرض البحر وكانت كل يوم تصدمها قطع اخرى فتقطع منها
قطعاً كبيرة حتى صار قطرها كيلومتريين وكل ما حاول المساكين من وسائل
النجاة ذهب سدّى فاقاموا بفاسون شدائد البرد والجليد والرياح والجوع ايضاً

وكان نارس لا يغفل عن جمع كمية وافرة من الزاد في كل ساحل حتى اذا اصابوا بفقد السفن مجدوا في رجوعهم ما يأكلون . واذ كانت السفن غاية في المائة تيسر لهم خرق الجليد وبلوغ الدرجة ٨٢ فهناك اعترضهم جبل من الجليد فما استطاعوا ان يجنازوا الدرجة المذكورة الا بربع وعشرين دقيقة . وهي آخر نقطة بلغت سفينة الى ذلك الوقت . وحينئذ اخذوا الاحتياطات اللازمة لقضاء فصل الشتاء حيث لا يرون الشمس مدة طويلة . غير ان نارس اجتهد قبل هجوم الليل القطبي الطويل ان يستقري كثيراً من تلك الاقطار فارسل مكهام وبري وماي في العجلات فبلغوا ٢٦° ٢٠' ٨٢° وهي آخر نقطة من العرض الشمالي وطئها انسان

وكان الدرتش نائب احدى السفينتين يستقري ايضاً النواحي المجاورة لها فقطع مسافة ٤٠٠ كيلومتر من الدرجة ٦٠ الى الدرجة ٨٧ من الطول الغربي وكان في كل مكان يجد المحاجر الجليدي الدائم الى جهة الشمال . ومع ذلك عرف الساحل وتعرجاته وثابت انه يميل ميلاً ظاهراً الى الجنوب الغربي بعد ان يعطف في خط منحن الى جهة الشمال

واما السفينة الاخرى فكانت اقرب الى الجنوب من الاولى فضى منها بولون لاستقراء ساحل غرينلندة . فضى عفاً شديداً هو ورفاقه ورجعوا وقد مات منهم اثنان . ووجد ايضاً ضريح القبطان هال سالماً . وكان معه صفيحة امرت انكلترا ان توضع في القبر تذكيراً لهمة ذلك الرجل الغيور الذي كشف الطريق فوضعها ولم يستطع الرجوع الى سفينته وهي تجاهد . فاقام باصحابه مدة حتى انهكهم الاتعب . وفي اثناء ذلك فحص ساحل غرينلندة الى مسافة طويلة وثابت وجود جزائر وبر ايضاً في جهة الشمال لكن لم يخفق هل هذا البر الذي رآه مستقل او هو قطعة مرتفعة من ارض غرينلندة من جهة الشمال وذاق اصحاب تلك الرحلة عذاب اطول ابل قطبي امكن العلماء الحكم على مدته واضنتهم الامراض وتخللوا قطع الجليد بشهامة غريبة وتعطلت صحتهم

وكان من حملتهم ايضاً الرجلان من الاسكيمو المذكوران وكان جل اهتمامهما تدبير ما يقتانون به ولولا حسن تدبيرها لهلك الجميع جوعاً . وكانت قطعة الجليد التي هم عليها تنناقص كل يوم حتى صار عرضها ٢٥ قدماً فقط فالتهم الله ان يشبوا منها الى قطعة اخرى ثم يتناولوا من قطعة الى غيرها حتى يبلغوا البر ولم يكن معهم الا زورق واحد كانوا كلهم متشبثين به فكادت الرياح في ذات يوم تنلف هذا المجد الوحيد الذي بقي لهم واصبحوا على شفير الهلاك المحقق بعد ان قضوا نحو ٢٠٠ يوم في اشد الاهوال واذا بسفينة لاحت لهم في الافق فجعلوا يلوّحون لها باجتهاد خارق العادة لكن مضى النهار ولم يفوزوا بطائل . فني الليل اشعلوا ناراً كبيرة من فضلة زيت الحينان الباقية معهم فلما طلع النهار لم يروا السفينة فمضوا يأساً

وفيما هم في ضيق الخناق رأوا قلع سفينة فلوحوا لها فرأت علاماتهم وانت فركبوا فترحب بهم اصحابها اشد الترحاب وتعبوا عجباً لا مزيد عليه من بنائهم وهم اتون من جهة القطب بقذفهم الجليد مدة ٢٠٠ يوم ولم يمت منهم مع ذلك احد لحسن تدبير رئيسهم تيسون وعلو همة الرجلين الاسكيمين فخبّر نجاح جال الذي دفع اوهاماً كثيرة في رسوم الخاتمة القطبية اثر في انكثرنا تاثيراً شديداً فجهزت لرحلة لم يسبى لها نظير حتى لا يسقط شيء من مجد لقبها وهو ملكة البحار . فقد شحنت سفينتين من اعظم السفن وامتها بذخيرة تكفي ثلاث سنوات وكان القائد الاول القبطان نارس المشهور بمخبرته وكثرة اسفاره البحرية وباكشافه بتكرار السبراموراً كثيرة في قاع البفر افادت العلم اجل التوائد الطبيعية . وكان بسفينته حينئذ في الباسيفيك عند خط الاستواء . فارسلوا اليه رسالة تلغرافية يخثونه على التذوم لرئاسة الرحلة القطبية . وجعل مركبهم لقيادة احدي السفينتين وستيفنسون لقيادة الاخرى وكان ذلك في حزيران سنة ١٨٧٥ واخذوا معهم كمية من الكلاب لجر العجلات وقاسوا انعاباً شديدة بين قطع الجليد واعترضهم صعوبات كثيرة في اجتياز مضيق سميت

حتى لم يسلم من داء البحر الا ثمانية من ٥٣ . ففي مركز هذه صعوبة وبين
 اخطار هذه شدتها وبعد المناسبة بين تلك العذابات ونتائجها المفيدة عزم
 نارس على الرجوع في اول فرصة تيسر له وان كان مأموراً ان يقيم ثلاث
 شتوبات هناك ولذلك كان رجوعه مكدرًا للعموم واتهموه انه لم يقيم بحق الرحلة
 ولا اتى بالنتائج المنتظرة مع ان الحق انه كشف سرًا عظيمًا وهو قانون الجزائر
 البحرية في القطبة الشمالية وعرف من السواحل مسافة ٧٤٠ كيلومترًا زيادة
 عما كان يعرف قبله . وعرف بتحقيق طبيعة ذلك الحاجز الجليدي الذي
 لا يستطيع البشر اجتيازه . وعرف ان داخله اي في مركز القطبة ليس بحر
 سائل بل اوقيانوس من الجهد مولف من قطع عظيمة ثابتة منذ قرون عديدة .
 وان ذلك البحر الجليدي يمتد من ساحل غرينلندة الشمالي الى الساحل الشمالي من
 اميركا في مسافة طولها اكثر من ٢٢٠٠ كيلومتر . ووجد ايضا آثار الانسان
 القديم الذي استوطن تلك الاقطار الى حد الدرجة ٨٢ من العرض وكشف
 ايضا في تلك النقطة منجمًا من الفحم الحجري من الزمن الثالث الجيولوجي

وبينا كانت انكلترا واميركا تحاولان دخول القطبة من مضيق سميت
 كانت المانيا تحاول كشف طريق مستقيمة بين غرينلندة وسبتسبرغ بهمة وتدير
 الجغرافي المشهور بينرمان وكان بينرمان يثبت القول بوجود بحر سائل في
 نفس القطبة فارسل سنة ١٨٦٨ السفينة المسماة جرمانيا لكشف هذا السر .
 فاعتصرها الجليد وسد طريقها باقرب وقتا من ذي قبل حتى لم تبلغ ساحل
 غرينلندة . فعادت الى نواحي سبتسبرغ واخذت تفارر عملية كثيرة الفائدة .
 ثم رجعت ولم تبق بشيء مما خصت بالذهاب لاجله

واما بينرمان فلم يتنع بهذه الرحلة وظن انه ينال قصب السبق في تحقيق
 قوله فجهز على نفقته لرحلة اخرى سفينتين بخارييتين متبعتين جدا وكان من
 جملة الراحلين جماعة من اشهر العلماء . والفائد كولدري من احذق روساء
 البحر وعضوا الى الساحل الشرقي من غرينلندة لتسهيل الاستفراء . وكانت كل

الظروف موافقة لانمام هذا العمل العظيم
فلما بلغوا الدرجة ٧٤ من العرض انفصلت احدى السفينتين عن الاخرى
بإشارة فهمت سوء فهم فالواحدة منها صدمتها قطع الجليد وحطمتها فنجاركا بها على
الجليد وساعدهم القدر بحفظ زوارقهم فوصلوا الى بلاد ماهولة جنوبي غرينلندة
واما السفينة الاخرى وهي المعول عليها فكثت قرب ارض الملك ولیم وهي القسم
الشمالي الشرقي من غرينلندة . (وهي غير جزيرة الملك ولیم الواقعة في الدرجة
٦٩ من العرض الشمالي بين ارض فنكوتوريا وجزيرة بوثيا)

ففي الحريف استقروا بعض اماكن قبل دخول الليل القطبي . وكان
الشاء لاجل التوفيق غير شديد عليهم . وكانوا قد تقدموا في العجلات الى
الدرجة ٧٧ ولولا نفاذ الزاد لتقدموا اكثر . وكانت المؤنة معهم لسنة واحدة
اخرها الصيف القادم عليهم . فرجعوا بفوائد كثيرة عن مسافة طويلة من
تلك السواحل وتقريرات لذيذة عن الجليد في غرينلندة واما الحاجز الجليدي
الشمالي فعبزوا عن خرقه نظير من تقدمهم

واما هولندة والدانمرك فكان قصارى ههما القيام بصحتها فقط في الاسفار
البحرية ومع ان مسالة القطبة الشمالية اخذت مكاناً في افكارها فقد تركا
العناية في حلها للامم الاخرى . فلما حصل النجاح في الرحلات السابقة اخذتها
الغيرة للسعي في معرفة الشمال الاقصى مشاكلة لغيرها . فمذ سنة ١٨٧٨ كانتا
تسيران كل سنة لجنة تأتي بفوائد جمة

وسلكت نروج ايضاً هذا المسلك فكان يتيسر لها النجاح بسهولة في هذه
المسألة لزيادة قربها الى الشمال . فاهتمت الحكومة بتعليم بحريتها العلوم الجغرافية
ورغبتهم في الاقدام على المخاطر الشمالية وهم بالطبع متعودون خوض البحار
الجليدية لصيد عجول البحر والحيتان حتى انهم يدخلون اصعب المسالك لتحصيل
شيء قليل ولا يبالون ببرد ولا مشقة لصلابة ابدانهم . ولذلك كانت اعمالهم
اجل فائدة ما سواها في العلوم الجغرافية . ولتنشيط الحكومة اياهم تراهم دائماً

باتون بفوائد جديدة من ابعد السواحل واقصى البحار الشمالية . وهم الذين
اكتشفوا شبه جزيرة سينسبرغ وقرروا امكانية الطواف حول زميلة الجديدة
وهم الذين فتحوا الطريق لدخول بحر كارا هذا فضلاً عن اكتشافات اخرى .
واسوج ايضاً لم تنصر في اعمالها فانها هي التي كشفت البحر الشمالي الشرقي كما سيأتي
فاذا تتبعنا الرحلات التي تكبدها الناس لاكتشاف القطبة الشمالية لا نرى
ان فوائدها وزنت الخسائر الجسيمة التي وقعت على الامم بين مال ورجال ومن
٢٠٠ رحلة معروفة لاستيلاء غوامض القطبة لم يقدر احد ان يبلغ اوسطها بل
كان حدهم تلك المنطقة الجليدية المحدقة بها . فان برّي مثلاً فات الدرجة ١٢
بدقائق قليلة كما مرّ وقد بقي للوصول الى الغاية المطلوبة ٦٠٠ كيلومتر

ولم يزالوا يجدّون في السعي الى الآن . ولا سيما بعد ان قرّروا ويبرخت
وجوب اقامة مرصد قطبية مولفة من جميع الدول . فلم يأبها لمقاله اولاً حتى
جددت هذا الراي الولايات المتحدة ونجحت في مسعاها . وعقدت مؤتمرات
دولية فارتأوا اقامة احد عشر مرصداً في الاقطار القطبية ارسلت اليها لجن
من روسيا واسوج وروج والدانرك والنسا وهولندة والولايات المتحدة وانكلترا
والمانيا منها عشر لجن في الاقطار الشمالية وواحدة في الجنوبية . ثم دخلت
فرنسا في هذا المسعى وارسلت لجنة تقيم في البلاد المسماة ارض النار

ولا بد ان الانسان يصل الى درجة من سمو الادراك وعلو الهمة وتحصيل
الصعب في الاجيال القادمة لا تخطر ببال الاجيال الخاضعة . والبرهان ان
المصاعب التي ذلها والاعطاش التي اقمعها والاسرار التي استجلاها والمشاكل
التي حلها والمجاهل التي استفراها في هذا العصر فقط اكبر دلائل على القوة
العظيمة التي اودعها في رب القوت

الفصل الثالث

المعبر الشمالي الغربي والمعبر الشمالي الشرقي

كان السبب في التفتيش على ممر يديريه حول برامبركا من جهة الشمال الغربي ان سياح القرن الخامس عشر كانوا يعتقدون ان البلاد التي اكتشفها كوليس معترضة في طريق الهند . فطامع كابوت البندقي الذي كان مقيماً في انكلترا وتبع البرتغال بعد تأكدها انها تخسر الارباح الناتجة لها من اسفار فاسكودا غاما حركت الهمة لهذا المسعى . وبقي الامر غامضاً الى زمن رحلات دافيس سنة ١٥٨٥ و ١٥٨٦ و ١٥٨٧ وحينئذٍ عرفت احوال البلاد الجديدة التي دخلها اهل الاستفراء . وكان هدسون في رحلته الاربع التي اتمها سنة ١٦٠٩ أشد اجتهاداً من سلف لاكتشاف الطريق المذكورة . وكان بافين مصاحماً بصفة ديدبان فتحقق ان المسلك المطلوب بعيد الى جهة الشمال فنقدم الى الاقطار الشمالية واكتشف مضيق لنكستر وكان قصده الوصول الى اليابان فلم يتيسر له

وبعد ثلاثين سنة انشأت انكلترا شركة كبيرة في جون هدسون بسعي رجل فرنسوي اسمه دي غروز لي ارسله لويس الرابع عشر فكان من جملة اعمالها السعي في ايجاد المعبر الشمالي الغربي فعرف بعد نحو سبعين سنة ان اهتمامها كان في توسيع تجارتها بالفراء وانها لم تنهم بوجود طريق تودي الى الباسيفيك فنصدت انكلترا التعويض عن هذا الاهال فارسلت ميدلتون لوجود هذا المسلك فلم ينجح وكان مدّعياً انه يعرفه

فلما اجلس العالي الى واسطة اخرى وعين مبلغ ٥٠٠٠٠٠٠ فرنك جزاء
لاول ملاح يقطع جون هيدسون ويرجع ماراً بيوغاز بيرين فاخذ روساء
البحرية المشهورون بمحاولون ذلك . مثل مور وسميث وكوك وهرن وماك كتري
فعادوا خائبين . ولما كان اول العصر الحالي حالت الحروب الاوروبية دون
الاسفار الى جهات القطبة غير ان سكورسي عزم ان يكون وسيلة الانفجار
لبلاده فالح لارجاع الشركات المتوقفة في سنة ١٨١٨ رحلت للجنات الى
الاقطار الشمالية من قبل انكلترا احدها تحت امرة جون روس والنائب باري
فجدت في كشف المعبر الشمالي الغربي . والاخرى تحت امرة بوتسان والنائب
جون فرنكلين كانت تسعى في وجود المعبر الشمالي الشرقي . فعادتا بلا نتيجة
فتكدر باري من خيبته وعاد في سفينتين سنة ١٨١٩ ونقدم الى جزيرة ملهيل
عند الدرجة ١١٠ من الطول الغربي . ثم رحل رحلتين متتابعتين فعرف بهما
عدة مضائق في الارخبيل الشمالي واما المعبر المعلوم فلم يجدّه

فلما علمت انكلترا ان نجاحها ببحراً لا يتيسر عدلت الى السعي في البر فسنه
١٨٢٠ كلفت جون فرنكلين ان يسير في عجالات على ساحل اميركا . فكانت
هذه السياحة شديدة المشقات وعرف بها فرنكلين مسافة ١١٠٠ كيلومتر من
الساحل وبعد ثلث سنين عاد الى تلك السواحل ببحراً وكان نائبه باك بفحص
انحاءها . ثم ان ديز وسميسون وراي وبلن وهوبر اتوا الطواف حول كل
الساحل الشمالي من اميركا سنة ١٨٥٠

وكان جون روس في اثناء ذلك يحاول تجديد رحلة لكي يفوز بالمبلغ
المذكور وحتى لا يكون هذا الفضل لباري وحده وهو حينئذ يسعى باجتهاد
عظيم . فلم تسع الدائرة البحرية اروس بمطلوبه فهبت النخوة في راس تاجر
غني اسمه فيلكس بوث فجهز اروس سفينة فسافر في الربيع سنة ١٨٢٩ وغاب
اربعة سنوات وكان لم يبارح قطراً من الاقطار المظنون وجود المعبر فيها الا بعد
ان بدقى الفحص فيه . وفي تلك الاثناء اكتشف البلاد المسماة ارض الملك ولم

(ملك انكلترا) واكتشف ايضاً مضيق بيل واخر سماه باسمه وعدة اصقاع من الساحل كانت قبالة مجهولة ثم اكتشف شبه جزيرة بوثيا الكبيرة فجعل اسمها منسوباً الى بوث الذي امدّه بماله . وفي تلك الارض فوق الدرجة ٧٠ من العرض الشمالي بقليل وقرب الدرجة ١١٠ من الطول الغربي اكتشف القطبة المغنطيسية اي المكان الذي فيه تنج البرة المغنطيسية اتجاهاً عمودياً تاماً

وكان باروقد اودع في الافكار وجود مضيق بين الجزائر والصخور التي تحيط بالساحل الشمالي من اميركا غير ان طول الطريق جعل المحاذفين في سلك البحر يقولون بوجود مسلك اخر اقصر مسافة فجعل بوغاز لنكستر نقطة الارتحال للمساعي فيما يلي . فالافادات التي اخذها فرنكلين في رحلته الاخيرة حملته على التوجه جنوباً بعد اجتياز مضيق بارو . وكان يعرف تلك السواحل معرفة جيدة وساعدته فطنته على صحة المنهج الذي يجب ان يتبعه ورجح انه يجد المطلوب في جهة الجنوب فبعد عناء شديد ومشقات لا توصف انصل الى كشف معبر طالما تنهاه هو ومن قبله وكان قد تقدم في سفنه الى بوغاز فكنورتيا . ولم يقدر ان يصل الى راس بارو المودّي رأساً الى بوغاز بيرين لكنه تعزى قبل موته بكونه وصل بمجده بين اكتشافاته واكتشافات باك وديز وسمبسون برّاً وكان مشاركاً لهم في هذه ايضاً قال بعضهم « ان فرنكلين ورفاقه صنعوا بادوات حياتهم او بطريقة موتهم آخر حلقة من سلسلة الاكتشافات حول برّ اميركا » لكن بسبب موت فرنكلين بقي اكتشافه ذلك المعبر مجهولاً الى سنة ١٨٥٩ حين كشفه ماك كلنتوك كما مرّ آنفاً

وكان ماك كلور قبل هذا العهد بتسع سنوات (اي سنة ١٨٥٠) قد رحل مع كونسون للطواف حول برّ اميركا مارّين ببوغاز بيرين . ففي الشتاء انصل ماك كلور عن رفيقه وتقدم بسفينته الى جهة الشمال الشرقي يطلب في ذلك الساحل مسلكاً في الجليد القطبي . فاجتاز نهر ماك كزري ووصل امام ارض ينك فحاول الطواف حولها من جهة الساحل الغربي فاعترضه الجليد

فعاد الى نيتِه من الساحل الشرقي واضطر ان يميل الى جهة اليمين فاكتشف ارضاً سماها البرنس ألبرت واثبت انه اخترق مضيقاً فاصلاً بين هذه الارض وارض بنك وهو يسير الى جهة الشمال الشرقي . فتنشط بهذا النجاح وعزم على التقدم بزيادة فتمعه الجليد فاقام فصل الشتاء واخذ يسير في العجلات ويدقق البحث في المراكز الى ان تحقق انه وصل الى خليج ملبيل الذي دخله باري بسرعة في رحلته الاولى فكان فرحه فائق الوصف لحله مشكلاً طالما اتعب الناس العظام غير انه كان يجهل كغيره ان اول من اجتاز هذا السبيل فرنكلين الى ان ظهر الامر بعد خمس سنوات . وهكذا تقرر انه يوجد معبر واكثر ايضاً من جهة الشمالي الغربي يطاف بواسطته حول رّامير كالكن لاستطيع السفن ان تجتاز تلك المعابر لدوام الجليد

واما مسألة المعبر الشمالي الشرقي فلم يفتنوا اليها اولاً لاشتغالهم بالاولى . وكان النور مندبون الذين اكتسحوا اوربا واتصلوا بسواحل اميركا قبل ان اكشفها كولبس بخمس سنين لم يتجاوزوا في اجائهم شمالاً البحر الايض . فاول رحلة كانت غايتها الجهة الشمالية رحلة وبلوغي وبمحبته رتشرشنسلور . وكان الذي حثّ عليها سنة ١٥٥٢ الديدبان المشهور الانكليزي كابوت وذلك لكشف طريق من الشمال الشرقي الى بحر الهند وقد ظنوا انهم يصلون اليه باخذ الاحتياطات اللازمة لقطع تلك البحار الشمالية الكثيرة الاخطار غير ان مساعيهم حبطت فهلك منهم جماعة تحت رئاسة وبلوغي من شدة الجوع والبرد بين جبال الجليد واما الباقيون فانصلوا بالجهد الى سواحل روسيا حيث اسسوا مدينة اركنجل . واتصل شنسلور بمحذوقه وحسن تدبيره الى بلاط القيصر الروسي ايقان الرابع واستعطفه حتى منحه امتيازاً تجارياً وارسل معه وفدًا الى انكلترا فدعاهم نوه شديد عند سكوثلندة كسر السفن وغرق شنسلور ومن ذلك العهد جرت المواصلات التجارية بين روسيا وانكلترا

وسنة ١٥٥٦ و ١٥٦٠ و ١٥٨٠ ارسلت انكلترا عدة لجن فاعترضها الجليد

حتى لم تدخل بحر كارا فضعف عزم الانكليز وقل اهتمامهم بهذا الشأن . لكن على عهد الملك جاك الثاني أرسل وود سنة ١٦٧٦ في سفينتين احداها مشحونة بضائع للتجارة في الصين واليابان فوصل الى زمبلة الجديدة وانكسرت السفينة التي كان فيها بقطع الجليد . فيئست انكثرا من ثم من امكانية اجتياز البحار الشمالية الى جهة الشرق الى ان قام كوك المشهور برحلاته العظيمة وحاول ففشل هذا المشكل فسافر من بليوث سنة ١٧٧٦ وبلغ بوغاز بيرين سنة ١٧٧٨ بعد ان تجول بنجاح في اقطار الباسيفيك (راجع رحلته في كتاب ملخص السياحات الكبرى)

وكان الهولنديون يجتهدون جداً في وجود معبر من الشمال الشرقي الى الباسيفيك فسنة ١٥٩٤ خرجت اربع سفن تحت امرة الاميرال كورنيليس كورنيلسون وديديبان الاول بارتنس فضى كل منهما في جهة وحصولا بعض نتائج حسنة فكورنيلسون وصل الى جزيرة فيغتش وقطع بوغاز كارا وراى امامه بجزراً فسيماً غير منجمد فعاد على الفور يبشر انه وجد المعبر الشمالي الشرقي . واما بارتنس فبلغ سواحل زمبلة الجديدة واستقراها الى راس ناصو وكانت كل قطع الجليد المنكسر في الشمال تاتي من هناك فحاول اختراقها عشرين مرة فخاب ثم انضم الى كورنيلسون وعاد معه الى هولنده

ففي السنة التالية ارسلت سبع سفن لما ظهر من تبشير النجاج ومعها بضائع برسم الصين وكان بارتنس ايضاً الديديبان الاول فعادت السفن خائبة لان الفصل لم يوافتها فضعف عزم هولنده ووعدت بمجائزة سنوية لمن يجد المعبر الشمالي الشرقي الى الصين

فسنة ١٥٩٦ ارسلت سفينتان وكان بارتنس الديديبان في هذه الرحلة فقبيل انهم اجتازوا الدرجة ٨٠ في تقدمهم شمالاً ليجتازوا زمبلة الجديدة . والحقت انهم بلغوا اريخيل سبتسبرغ في فصل رآوا فيه من الحيوان المسمى رنى قطعاناً عديدة تسرح في سهول تلك الجزائر . واخيراً دهم الشتاء فرجعوا ومات بارتنس في

الطريق . وقد نتجت من هذه الرحلة نتائج عظيمة جغرافية . فبردت اهمة بعد ذلك من جهة هولندة

وكانت روسيا حينئذ على عهد ايفان الرابع تتقدم في الجهات الشمالية مكتسبة سواحل سيبيريا . ولما استولت على كينشتكا في القرن السابع عشر ارادت استقراء سواحلها الشمالية وبعد مدة قصيرة تقدم بيرين لخدمتها وطاف حول السواحل الشرقية من سيبيريا ومات بعد ان سمي باسمه الجزيرة والبحر والمضيق التي اكتشفها فصار ساحل اسيا الشمالي الشرقي معروفاً تقريباً منذ سنة ١٧٣٠ الا ما بين كوليا ونهر لينيا من ساحل سيبيريا واما وراء ذلك النهر فبقي مجهولاً الى حد جزيرة فيغتش الا ان بعض التجار كانوا حذراً من مشقات الاسفار يتقدمون على خط مستقيم الى ان يبلغوا خليج اوبي بواسطة قوارب صغيرة يستخدمونها ايضاً مكان العجلات على البر والجبال

وحينئذ عزم الملكة حنة الروسية ان ترسل لجنة لاستقراء كل شواطئ الاوقيانوس المتجمد الشمالي . فجهزت لها تجهيزاً عظيماً حتى اقامت اللجنة في البحث عشر سنوات وعادت بفوائد جمة لم تعرف الا في اواسط هذا القرن وبينما كانوا يستثرون سواحل بلاد السويد اكتشفوا شبه جزيرة تيمور المزدوجة وحاولوا تكرار الوصول الى ياكوتسك بنهر ينيسي . وبلغ واحد من اكثرهم اقداًما الطرف الاقصى من ذلك البر السيبيري فسماه بما معناه الراس الشمالي واما الجغرافيون المتأخرون فسموه باسمه اي تشيليو سكين اكراماً لذكره وسنة ١٧٣٦ تمت معرفة كل سواحل اسيا براً وبقي مجهولاً منها بحراً قسم كبير من شبه جزيرة تيمور . وسنة ١٧٦٨ اكتشف روسيو سلوف بوغاز مار متى فكان نقطة مهمة للأسفار . وسنة ١٧٧٠ رأى احد التجار السيبيريين واسمه لياكوف كثيراً من الرنى آتية من الشمال فاراد ان يعرف من اي ارض قادمة فحصى يقفو الاثر حتى بلغ على مسافة قصيرة مجموع جزر سميت باسمه . ووصل ايضاً الى جبل عظيم من هياكل الحيوان المسمى «موث» وهو من اكبر الحيوانات

المنقرضة فصاروا يتخذون العاج من تلك العظام وتوفر ربح روسيا من هذه التجارة ومن سنة ١٨٠٩ الى سنة ١٨١٢ استقرى هودنستريم الروسي مجموع جزر لياكوف المسماة ايضاً سيبيريا الجديدة . ثم فحص رنجل دانجو شواطئ لنا الى الدرجة ١١٥ من الطول الشرقي واستمر رنجل في فحص اربع سنوات اثبت في اثنائها وجود برّ شمالي سمي باسمه . وهكذا استطاع هو وهودنستريم وكلت ان يبرهنوا عن ندور وجود الجليد شمالي جزر لياكوف الى ارض رنجل

ومن سنة ١٨٢١ الى ١٨٢٤ قام لوتكي برحلة علمية في بحر زمبله الجديدة وسنة ١٨٢٧ جدد المباحث هناك العالم باير الروسي غير انه لم يتجاوز حد الجليد فعاد وقرر ان بحر كارا مستودع اكمل جليد القطبة وان الاحق هو الذي يحاول فتح طريق في خلاله فسكن الناس عن المخاطرة المذكورة مدة ثلاثين سنة غير ان جمعية الجغرافية الروسية كانت تعضد هذا المشروع بتسييرها من يكشف الآثار الطبيعية الارضية والجوية في انحاء سيبيريا . فسنة ١٨٤٢ استقرى ميدندرف بعد عناء شديد الجون والبحيرة والنهر التي في شبه جزيرة تيمور وكانت المسألة تزداد جلاءً بزيادة الرحلات وبذل الهم حتى رأى تاجر روسي اسمه سيدورون سنة ١٨٤٥ لزوماً لارسال سفينتين فلم يتجاوزا شبه جزيرة سمويده . وكان الصيادون النرويجيون ياتون كل سنة بجركارا فعلم من تقاريرهم ان هذا البحر لا يبق متجمداً وان فيه معابر الى جهة الشمال .

وسنة ١٨٧٢ دخلت نروج سفينة نمسوية فيها قائدان خيراف وثما باير وويبرخت قاصدان دخول البحر القطبي السائل والتفتيش على المعبر الشمالي الشرقي فوق زمبله الجديدة فاسر الجليد السفينة هناك وتراكمت قطعته وتماسكت جداً حتى لم يوثر فيها منشار ولا اقوى منه واستمر في عذاب شديد عدة شهور ففي ٢٠ نيسان سنة ١٨٧٢ راوا برّاً وكاسا عند الدرجة ٧٩ والدقيقة ٤٣ من العرض الشمالي والدرجة ٥٩ والدقيقة ٢٢ من الطول الشرقي لكن منعهم الجليد عن بلوغ هذا البرّ فسموه ارض فرنسوا جوزف ثم تشق الجليد في فصل

الخريف وانحلّ عن السفينة لكن بقيت تحت الخطر من صدمات قطعها فاسرع
الركاب الى البر المذكور ثم تيسر لهم الرجوع قبل فصل الشتاء. فعرف ان السفينة
بلغت الدرجة ٧٩ والدقيقة ٥٨ مجتازة بمضيق كثير الجزائر سي مضيق اوستريا
ورحلوا رحلة اخرى بلغوا بها ارض زنجي وصعدوا قمة هبوت التي ارتفاعها ١٦٠
متراً واشرفوا منها على انحاء الاوقيانوس المتجدد محاولين وجود مسلك يخلصون
به من اسرهم فلم يجدوا فتركوا السفينة ومضوا في العجالات وكثيراً ما كانوا يفرقون
في الثلج الى الركبة ويشند عطشهم من شدة التعب حتى كانوا يسفون الثلج
وبقوا شهرين لم يتقدموا اكثر من اربعة كيلومترات واستمروا في هذا العذاب
نحو ثلاثة اشهر الى ان وصلوا الى ساحل زمبله الجديدة

وكانت اكثر الدول عارضة جائرة سنية لمن يكشف المعبر الشمالي الشرقي
ومضت عدة سنوات بدون نتيجة . وكانت نروج ترسل الصيادين الى الاقطار
الجليدية وتبالغ في البحث وكذلك اسوج كانت لانالو جهداً في الاستقراء .
وكان منها رجل اسمه نوردنسكيولد قضى عشرين سنة وهو يهتم بهذه المسألة
ورحل خمس رحلات من سنة ١٨٥٨ الى ١٨٧٢ واقنع الحكومة ان تلازم البحث
في فصل الشتاء ايضاً بتواصل العمل . واستنتج من تقارير صيادي نروج ان
المعبر من البحر الابيض الى نهر ليننا ممكن في العمل وان استحال في الفكر .
فعزم على رحلة اخرى وساعده تاجر آخر اسوجي . جهز له سفينة على نفقته
فرحل سنة ١٨٧٥ الى ان دخل بحر كارا فوجد قسماً كبيراً منه غير متجمد
وكان الماء عذباً فعرف انه آت من سيول وانهار عظيمة ساحلية فسار في ذلك
الماء الى الدرجة ٧٥ والدقيقة ٣٠ فظهر له اخيراً ان انحلال الجليد هناك ناتج
عن انصباب مياه نهري ينيسي واوبي الحارة في شهر آب وقد اكتشف فضلاً عن
ذلك عدة انواع من الاشجار في اعلى اقطار سيبيريا عند الدرجة ٧٠ . وكانت
الاراضي خصبة جداً عند الدرجة ٦٤ والغابات نضرة والمروج والمواشي كثيرة
وهذا ما حمل الناس على اشد العجب

ثم رجع هذا الرجل العظيم وقد كشف في بضعة اسابيع ما لم يكشف قبله
 بدهور وفتح طريقاً من اعظم الطرق للتجارة . واجتاز بحر كارا الى مصب نهر
 ينيسي . وهكذا كشف ذلك المعبر الذي قضت فيه الدول سنين كثيرة ولم
 تكشفه . وذلك انه سافر في فصل موافق يكون فيه الجليد ذائباً في بحر كارا
 فتكون الطريق مفتوحة . وكان من قبله لايراعون هذا السرّ اللطيف

ثم عزم على رحلة اخرى يطوف بها حول آسيا كلها خارجاً من نروج وماراً
 بالاقويانوس المتجمد وراجعاً من برزخ السويس فامدهُ صديق له اسمه
 دكسون بال كثير وساعدهُ ايضاً بعض الملوك حتى كانت الذخيرة كافية لعدة
 سنين . فخرج في تموز سنة ١٨٧٨ وبلغ راس مارتى ومر بجزيرة فيغتش
 وهناك لبث مدة يدقق البحث في ما لم تحقق معرفته منتظراً دخول الشهر
 الموافق لقطع بحر كارا . وقد عرف ان الذين سبقوه لم يكونوا ينتظرون الى
 واسط ايلول خوفاً من تعرفهم بقطع الجليد مع ان الوقت المناسب اواخر ذلك
 الشهر . وعطف في طريقه شالاً لعله يبلغ النطقة غير ان جبال الجليد منعه كما
 منعت غيره فعاد جنوباً وسار متارياً للساحل السيبيري ليستقري ويدقق
 وكشف عدة جزر وضبط مواقع الافطار الى غير ذلك

غير انه تعوّق بالاستقراء واسرع دخول الفصل البارد ففضى عشرة
 اشهر منتظراً حلول الوقت المناسب للوصول الى بوغاز بيرين . فلما كان
 ثامن عشر تموز سنة ١٨٧٩ سار في طريقه وبلغ اليابان في ايلول ولم يفقد من
 رجاله احد ووصل الى بلاده بامان وقد دار حول اسيا واوربا معاً
 وهكذا كشف المعلم نوردنسكيولد الاسوجي المعبر الشمالي الشرقي من اوربا
 الى الصين والهند ببوغاز بيرين باجتياز البحار الشمالية في شهر ايلول . وهذه
 الوسطة حصلت الاتصاليات التجارية العظي بين اسيا واوربا واقطار سيبيريا
 الشمالية بسهولة لا تُقدر لها قيمة . وكانت فائدتها العظي اروسيا

خاتمة

— ❦ —

في طبيعة القطبتين

اما النقطبة الشمالية فلكثرة السياحات فيها وتكرار الاستقراءات الجغرافية والطبيعية قد استفاد العلماء عن احوالها فوائد اخبارية جليلة الشان يطول شرحها لكن مما يجب الالتفات اليه هنا ثلاث قضايا مهمة الاولى طول مدة الليل هناك وما يظهر فيه من المظاهر الثانية الشفق الشمالي الثالثة كثرة وجود الحيوانات في داخل النقطبة . هذا مع قطع النظر عن مجاري النطع الجليدية العظيمة وما يتأتى عنها من مصاعب التجول

فالشمس هناك تخفي عدة اشهر تحت الافق فالذي يمر عليه فصل الشتاء اول مرة لا يملك نفسه ان يرتعد ويخفق قلبه رعباً من احوال الطبيعة الظلامية حتى ان الحيوانات تظهر عليها امارات الرعب .

ويختلف طول الليل باختلاف الدرجات فعند درجة ٨٠ تكون مدة الظلام ١٢٧ يوماً لكن يظهر في السماء بعض انوار خفيفة محضرة وقد تسطع حتى تكشف الحجرة ولا يملك الظلام الا بوقوع الثلوج وتكاثف الضباب . وفي مدة ذلك الليل تطف حاسنا السمع والنظر فتظهر للعين مناظر غريبة كالسراب والهالات والشموس الكاذبة والاقمار الكاذبة ولا سيما الشفق الشمالي العظيم الذي يعظم ويتكاثر كلما هت ربح الجنوب وقد عرف ان سبب هذه المناظر تكسر النور العبد في قطع الثلج السابحة في الفضاء وانعكاسه عنها . واما المسهوعات فتزيد قوتها فاذا سقط حجر مثلاً يخرج لوقعه صوت كصوت المدفع

ولذا نكلم الانسان بجمع صوتاً الى مسافة كيلومتر وفيهم كلامه

ولذلك يكون اعظم فرح للانسان هناك قرب وقت طلوع الشمس
تظهر انوارها اولاً شفقاً بتعاطف بالتدرج ويظهر القمر اولاً ضعيف النور ثم يحد
ثم ينجلي ويسطع نوره حتى يرى الانسان على مسافة كيلومتر . وبعد خمسين
يوماً من اول تبشير الشفق تظهر الشمس ببهائها وتمكث اكثر من اربعة اشهر
على الافق فتكون لظهورها اعياد عامة في الاقطار الشمالية ويضرمون نيراناً
عظيمة في ٢٤ حزيران الذي هو اطول ايام الصيف عندهم

وفي ابعد نقطة شمالية انصل اليها الانسان وجدت آثار الحياة النباتية
والحيوانية بكثرة حتى ان الثلج تعيش فيه ملايين وربوات من حيوانات صغيرة
ومكرسكوية فصفورية حتى اذا داس الانسان بقعة تظهر على اثر قدمه
اشعة باهرة مثلألثة . وكثيراً ما شاهد الذين بلغوا الدرجة ٨٢ و ٨٣ قطعاناً من
الحيوانات تاتي من جهة الجنوب وتدخل داخل المنطقة الجليدية وشاهدوا ايضاً
اسراباً لاتحصى من الطير في اقاصي الافق فاستدلوا على وجود بحر سائل وبر
حي في وسط القطبة . غير ان مسألة البحر السائل لم تثبت على ثقة

واما القطبة الجنوبية فلم يشتغلوا باستقراؤها اولاً لان الجليد هناك اكثر بكثير
ما في القطبة الشمالية بحيث لا يكون وقت يتيسر فيه تخالط والعمران ابعد عنها
بكثير ما عن الشمالية والاثار الجوية ضعيفة ايضاً بالنسبة الى ما في الشمال . ومع
ذلك فقد ارسلت لجن مخصوصة تقيم في الجزائر القريبة لرصد ظواهر الطبيعة
وما يتعلق باحوال الاقطار الجنوبية وجغرافية القطبة على قدر الامكان . ولا

بد ان ياتوا بفوائد دون الحصول عليها بذل النفوس والاموال

هكذا اطم الله الانسان بقوة داخلية ان يتعم مخاطر الدنيا ويبحث

بتدقيق عن احوال هذا الوطن الثاني لكي يزداد

تجيداً لقدرته وتسبيحاً لجلاله

وحكمته

